474

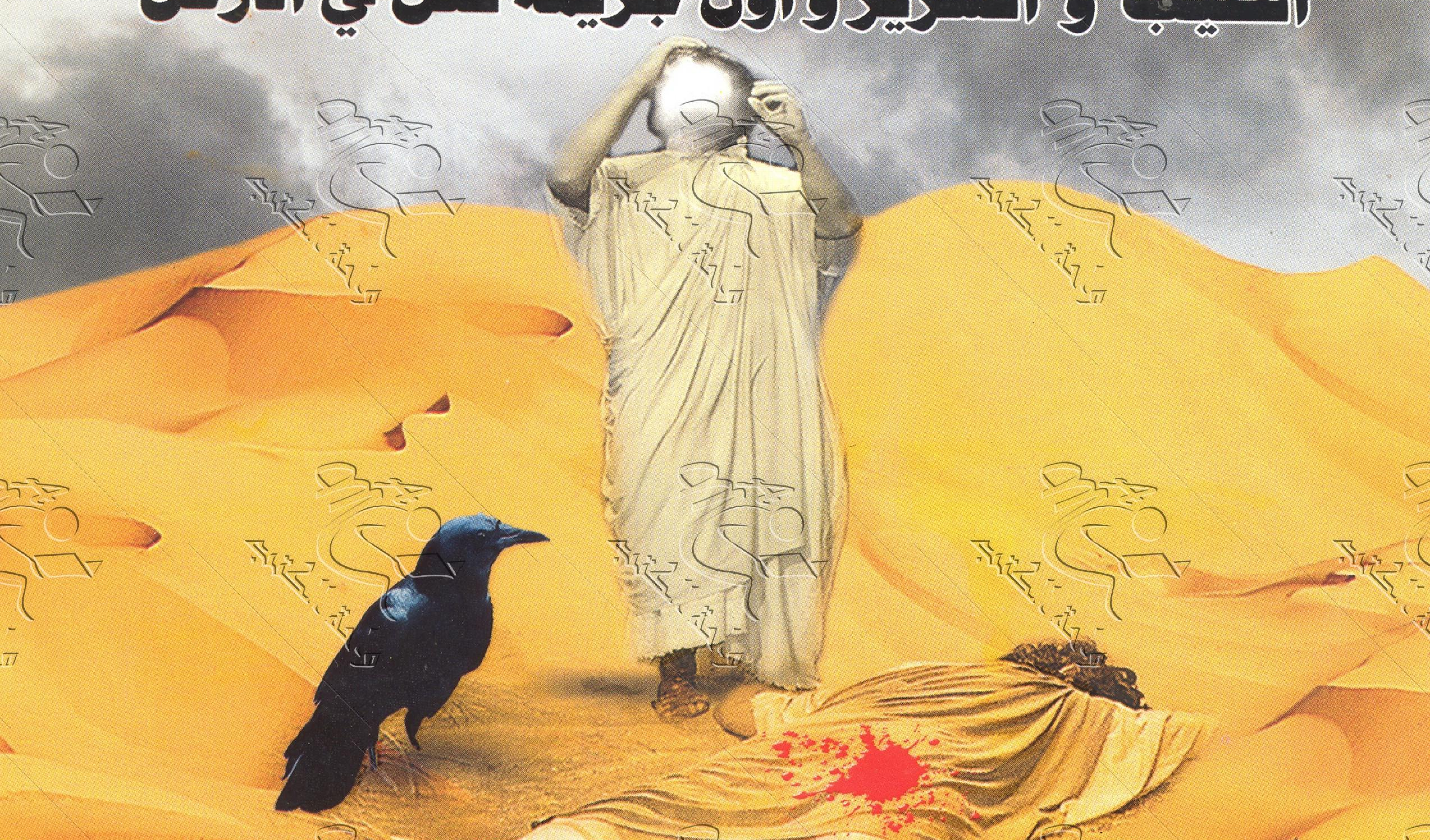
منصور عبد الحكيم

A. M.

الأخوان

هابيل وقابيل

الطيب و الشرير وأول جريمة قتل في الأرض



قدم له وأشرف عليه:


الدكتور عبد المعين الشواف

دار الشواف للنشر والتوزيع

1980

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة



Mon.
14 Nov. 2016

الأخوان هابيل وقابيل

الطيب و الشرير و أول جريمة قتل في الأرض

قابيل و هابيل أبنا آدم عليه السلام جاء ذكرهما في آيات سورة المائدة دون ذكر اسميهما صراحة ، حيث قرب كل واحد منهما قربانا لله عز وجل فتقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ،فهدد قابيل أخاه بالقتل ثم قتله مع سبق الإصرار والترصد ، فكان جزاؤه أنه يتحمل كفلاً من كل قتيل يقتل من بني آدم إلى يوم القيامة كما جاء في الحديث النبوي الصحيح وتقرأ في هذا الكتاب تلك القصة وما قيل عنها ، والأجواء المحيطة بها ، فتقرأ عن البداية حيث خلق الله آدم وحواء وتكوين أول أسرة في الجنة ثم على الأرض ، ثم أعمال آدم الأولى على الأرض وأولاده وكيف انتشرت ذرية آدم وزادت على النحو الحالي ، وتقرأ عن أفعال قابيل بعد أن قتل أخاه وإلى أين ذهب بعد ذلك ؟ وتفاصيل قصته مع أخيه ثم الحديث عن أبناء قابيل وماذا فعلوا من إفساد في الأرض وكيف أن آدم وأبناءه الآخرين حذروا أبناءهم من قابيل وذريته ثم تقرأ عن علاقة قابيل ببني إسرائيل وهل قابيل هو إسرائيل كما يقولون؟ وبالتالي يكون بنو إسرائيل هم بنو قابيل ..تجد الإجابة في هذا الكتاب.

ثم تقرأ عن قابيل والمسيح الدجال وهل قابيل هو المسيح الدجال أم أنه أحد أحفاده ؟

ثم تقرأ عن ذرية قابيل وكيف اندمجت مع ذرية آدم من ابنه شيث ونوح بعد ذلك فأصبح كل منا يحمل في داخله قابيلا و هابيلا ، إنه كتاب ندعوك لقراءته وإضافته لمكتبتك الخاصة

دار الكتاب العربي
darketab
www.nwf.com
nooonbooks
www.jamalon.com
daralkitab
www.darketab.com darelkitab@yahoo.com

I.S.B.N. 978-977-376-
8 483533 665496

1980 دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة
دار الشواف للنشر والتوزيع

الطيبُ والشريرُ

الأَخَوانِ

هَابِيلُ وقَابِيلُ

وأول جريمة قتل على الأرض

منصور عبد الحكيم

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

تقديم

الأستاذ الدكتور عبد المعين الشواف

إن التاريخ الإنساني يبدأ بأول أسرة عاشت على الأرض تلك الأسرة المكونة من الأب آدم والأم حواء عليهما السلام والأبناء من الذكور قابيل وهابيل وابنتين .. وكانت الشريعة الإلهية في الزواج واستمرار النسل وتكاثره أن يتزوج قابيل بتوأمة أخيه هابيل وأن يتزوج هابيل بتوأمة أخيه قابيل .. إلا أن قابيل رفض هذا الأمر الإلهى وأصر على الزواج من توأمته .. والقصة جاء ذكرها في سورة المائدة في الآيات من ٢٧ إلى ٣١ ومشروحة في كتب التفسير والتاريخ.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: 27 - 31].

وبعد اطلاعي على هذا الكتاب وبصفتي متخصصًا في التاريخ أعجبني طرح المؤلف للقصة واكتشافه لأبعاد جديدة لم يتطرق إليها غيره فيها ممن كتبوا عن تلك القصة.

فالمغزى الأساسي للقصة يتعرض للصراع بين الخير والشر وأول جريمة قتل تشهدها البشرية على الأرض وكان القاتل فيها قابيل والمقتول أخاه هابيل .. فالقصة تتلخص في أن حواء عليها السلام تلد في البطن الواحد ابنا وبنتا .. وفي البطن التالي ابنا وبنتاً، وكان آدم يُزوج ذكر كل بطن بأنثى من بطن آخر، ويقال إن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل التي كانت أجمل من أخت هابيل لكن قابيل أراد أن يستأثر بها، فأمره آدم أن يزوجه

إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قر بانًا وهو ما يُتقرب به إلى الله وذهب آدم إلى مكة ليحجّ وقرّب كل واحد منهما قربانه بعد ذهاب أبيهم آدم، فقرَّب هابيل جذعة سمينة وكان صاحب غنم، وأما قابيل فقرب حزمة من زرع رديء وكان صاحب زرع. فنزلت نار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب قابيل غضبًا شديدًا وقال لأخيه هابيل لأقتلنك حتى لا تنكح أختي فقال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

وذات ليلة أبطأ هابيل في المرعى فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذ هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل مني، فقال له هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، فغضب عندئذ قابيل، ثم أتاه وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه، وقيل خنقه خنقًا شديدًا.

لما قتل قابيل هابيل ندم على ذلك فضمه إليه حتى تغيرت رائحته، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر حتى يرمي به فتأكله، وكره أن يأتي به آدم فيحزنه، ولم يزل يحمله حتى جاء غرابان فاقتتلا أمام قابيل فقتل أحدهما الآخر، فعمد إلى الأرض يحفر له بمنقاره فيها، ثم ألقاه ودفنه وجعل يحثي عليه التراب حتى واراه فقال عندها قابيل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ ثم أخذ يفعل به ما فعل ذاك الغراب فواراه ودفنه تحت التراب.

روى الجماعة سوى أبي داود وأحمدُ في مسنده عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل» أي ظلمًا. فعلم من ذلك أن قابيل ما تاب من قتله هابيل.

والكاتب في هذا الكتاب بعد أن ذكر القصة وما جاء فيها من أحداث يذكر لنا أيضا أشياء أخرى هامة عن ميلاد قابيل وهابيل وقيل إن قابيل ولد في الجنة التي سكنها آدم وزوجته حواء .. ويشرح لنا معنى اسم قابيل وهابيل في قاموس المعانى .. ثم يتحدث عن مغارة الدم والجبل الذي شهد تلك الجريمة الشنعاء جبل قيسون في سوريا .. ثم وفاة آدم ووصيته لابنه شيث تجاه أخيه قابيل وذريته.

ويتعرض الكتاب إلى ذرية قابيل وإفسادهم في الأرض والأرض التي سكنوها ثم يذكر لنا أن بني شيث خالفوا وصية آبائهم بعدم الاختلاط بذرية قابيل فخالطوهم وذلك في حياة يرد بن مهائيل.

مما أدى إلى عبادة الناس حينها الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام.

ويذكر الكاتب مسألة هامة تتعلق بكون قابيل من المنظرين أم أنه مات ويرجح أن قابيل مات وأن أحد أحفاده وهو توبال قايين هو المسيح الدجال وأنه من المنظرين وقد أفاض وأحسن في شرح تلك المسألة.

ثم يتطرق الكاتب بأسلوبه السهل إلى حسد قابيل وبيان الحسد في علم النفس والاجتماع وأن الإنسان وقع في خطيئة كبر إبليس وحسد قابيل ثم يذكر لنا دوافع القتل عند الإنسان.

ثم يذكر لنا ماذا قال العهد القديم عن قصة قابيل وهابيل .. ثم يتعرض لموضوع هام وجدي ألا وهو هل قابيل هو المسيح الدجال ؟؟؟

ثم يتحدث عن بني إسرائيل وأين عاشوا في مصر أم اليمن .. ثم يصل إلى نتيجة هامة هي أننا الآن على الأرض من ذرية قابيل وهابيل أى أن فينا الخير الذي يمثله هابيل والشر الذي يمثله قابيل .. أى أن قابيل يعيش فينا كلنا.

ثم يختم الكتاب بالحديث والإفصاح عن شخصية المسيح الدجال وهذا اجتهاد منه له الأجر عليه إن أخطأ أو أصاب.

خلاصة المقال أن هذا الكتاب قد حوى الكثير من المعلومات الهامة عرضها الكاتب منصور عبد الحكيم كما عودنا بأسلوب سهل بسيط يستطيع القارئ أن يتفهمه ويستوعبه بكل سلاسة ويسر .. نسأل الله أن ينفع به عموم أهل الإسلام وغيرهم من بنى الإنسان.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. عبد المعين الشواف
الرياض
المملكة العربية السعودية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله وحده نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، خلق الخلق وقدر الأرزاق فلم ينس أحدًا ممن خلق، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيه من خلقه وحبيبه، خاتم الأنبياء والرسل بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به عنا الغمة وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ثم أما بعد...

جاء ذكر هابيل وقابيل في كتب السيرة والتاريخ باسميهما وذكرهما الحق جلَّ وعلا في القرآن الكريم بوصفهما ابني آدم في سورة المائدة قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] والمغزى من القصة هي الصراع بين الشر الذي يمثله قابيل تجاه أخيه الطيب المطيع لأبيه وربه هابيل وبين الخير الذي يمثله هابيل وكيف أن قابيل أنهى الصراع بأول جريمة حين قتل أخاه هابيل فكانت أول جريمة قتل على وجه الأرض حيث لم يكن على وجه الأرض سوى آدم وحواء وقابيل وأخته التوأم وهابيل وأخته التوأم أي لم يكن على الأرض سوى ستة فقط من جنس الإنسان.

وأصبح قابيل بن آدم يمثل الشر في حياة الإنسان حتى قيل إنه المسيح الدجال الذي سيكون ظهوره الأخير آخر الزمان ويكون مقتله على يد المسيح الحقيقي ابن مريم عليه السلام وقيل في قابيل كلام آخر، وفي هذا الكتاب سوف نطرح الموضوع على مائدة البحث والحوار لعلنا نصل إلى الحقيقة أو نتعرف على بعضها والله المستعان؛ لكن تلك

القصة تمثل في الذاكرة أول صراع بين الخير والشر الكامن داخل كل منا وقد يقول قائل إن إبليس – عليه اللعنة – هو ممثل الشر على وجه الأرض أو هو سفير الشر، إلا أن قابيل يظل ممثل الشر من بني آدم وإبليس هو ممثل الشر من بني الجان فهما وجهان لعملة واحدة ولهذا فإننا سوف نتطرق إلى القصة، قصة الأخوين ثم ما يتطرق عنها من معانٍ وما قيل عنها من القدامى (المؤرخين والمفسرين) والمحدثين أيضًا وهل لقابيل ذرية، ومن هم؟ وما علاقة قابيل بشخصية المسيح الدجال أو إسرائيل وهل هو كلاهما أو أحدهما؟ نجيب عن تلك التساؤلات في هذا الكتاب الذي نسأل أن يوفقنا الله إلى إخراجه على الوجه الذي يرضيه ويتقبله منًّا إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه تسليمًا كثيرًا.

منصور عبد الحكيم
mansor2455@yahoo.com

1 أول أسرة على الأرض

- البداية خلق آدم وحواء عليهما السلام والحياة في الجنة.
- البيت الأول لأول أسرة بشرية.
- آدم وحواء على الأرض يلتقيان.
- أول أعمال آدم وحواء على الأرض.

البداية خلق آدم وحواء عليهما السلام

آدم عليه السلام أبو البشر خلقه الله تعالى بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له الملائكة وأسكنه الجنة وخلق من ضلعه حواء عليها السلام ومنهما جاءت الذرية البشرية وعمرت الأرض.

وجاء ذكر كلمة آدم في القرآن الكريم نحو 25 مرة منها آيات يخاطب الله تعالى فيها آدم وأخرى يخاطب بها بني آدم وأخرى تتحدث عن بني آدم وأخرى يخاطب الله بها الملائكة عن آدم، قال تعالى في سورة البقرة عن خلق آدم وأسباب خلقه وكيف ميز الله تعالى آدم عن سائر خلقه من الملائكة وغيرهم وجعله خليفة في الأرض ثم أمره للملائكة بأن يسجدوا لآدم بعد خلقه ثم أنه أسكنه وزوجه حواء الجنة وطرد إبليس من رحمة الله بعد أن رفض أمر السجود لآدم وتكبره وعصيانه ثم وسوسة إبليس لآدم وحواء وللأكل من الشجرة المحرمة التي حرمها الله تعالى عليهما، ثم خروج آدم وحواء من الجنة وهبوطهما إلى الأرض ومعهما إبليس أيضًا، ثم توبة الله على آدم عليه السلام، كل ذلك في آيات متتابعة في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة: 30-39].

وأما عن المادة التي خلق منها آدم عليه السلام فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59]. ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: 14].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: 26].

وقال تعالى على لسان إبليس الذي رفض السجود لآدم استجابة لأمر الله: ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: 61].

فالآيات كلها تشير إلى أن آدم خُلق من تراب الأرض الممزوج بالماء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خلق آدم من ثلاثة، من صلصال ومن حمأ ومن طين لازب، فأما اللازب فالجيد، وأما الحمأ فالحميئة، وأما الصلصال فالتراب المدقق ويعني تعالى ذكره بقوله: «الصلصال» من طين يابس له صلصلة، والصلصلة: الصوت».(1)

وجاء أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما ذكره عنه الطبري في تاريخه: أمر الله تبارك وتعالى بتربة آدم فرفعت، فخلق آدم من طين لازب من حمأ مسنون، قال: وإنما كان حمئًا مسنونًا بعد التراب، قال: فخلق منه آدم بيده، فمكث أربعين ليلة جسدًا مُلقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله، فيصلصل فيصوِّت، فهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن: 14].

يقول: كالشيء المنفرج الذي ليس بمصمَت.

قال ثم يدخل من فيه - فمه - ويخرج من دبره، ويدخل من دبره ويخرج من فمه، ثم يقول لست شيئًا للصلصلة، ولشيء ما خلقت، ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت عليَّ لأعصينك».

وأما عن اليوم الذي خلق فيه آدم عليه السلام فكان يوم الجمعة في آخر ساعة من ساعات ذلك اليوم المبارك، جاء ذلك فيما رواه مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن

1- رواه الطبري في تاريخه.

رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه أُدخل الجنة وفيه أخرج منها».

وفي رواية أخرى زيادة: «ولاتقوم الساعة إلا في يوم الجمعة».

وفي رواية أخرى عند أحمد بن حنبل في المسند زيادة: «وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلي وقبض أصابعه يقللها - يسأل الله عز وجل خيرًا إلا أعطاه الله».

وروى أبو داوود في سننه بسنده عن رسول الله ﷺ:

«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة من حين تطلع الشمس شفقًا من الساعة إلا الجن والإنس وفيه تقوم الساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله عز وجل حاجة إلا أعطاه إياها».

هذا هو يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم عليه السلام.

وقد دلت الأحاديث النبوية الصحيحة أن هيئة آدم عليه السلام من حيث الطول والجسد وعظمة الخلق وهي تختلف عن هيئة الإنسان بوضعه الحالي.

وقد روى الشيخان البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: خلق الله آدم عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك: نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله.

فزادوه: ورحمة الله.

وفي رواية مسلم زيادة: «فلم يزل الخلق ينقص بعدُ حتى الآن».

وقوله خلق الله آدم على صورته أي على صورة آدم التي كان عليها من مبدأ فطرته إلى موته، لم تتفاوت قامته ولم تتغير هيئته بخلاف بنيه فإن كلًّا منهم يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا.

وقال ﷺ عن وجهه للإنسان: «إذا قاتل أحدكم أخاه، فلا يلطمن الوجه». رواه مسلم

عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال أيضًا: «إذا قاتل أحدكم أخاه، فليتجنب الوجه، فإن الله خلق آدم على صورته».

ومما جاء في ذكر آدم عليه السلام في الأحاديث النبوية نذكر قوله ﷺ: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك». [1]

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما نفخ في آدم، فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال له - تبارك وتعالى: يرحمك الله». [2]

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله آدم تركه ما شاء أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك». رواه مسلم في صحيحه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من تراب، ثم جعله طينًا ثم تركه حتى إذا كان حمأً مسنونًا خلقه الله وصوَّره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالًا كالفخار».

قال: «فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خُلقت لأمر عظيم». ثم نفخ الله فيه من روحه، فكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فلقاه الله حمد ربه فقال الله: يرحمك ربك.

ثم قال الله: يا آدم، اذهب إلى هؤلاء النفر، فقل لهم: السلام عليكم، فانظر ماذا يقولون؟

فجاء فسلم عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

فقال: يا آدم، هذه تحيتك وتحية ذريتك.

قال: يا رب، وما ذريتي؟

قال: أختر إحدى يديَّ يا آدم.

قال: أختار يمين ربِّي وكلتا يدي ربي يمين، فبسط كفه، فإذا من هو كائن من ذريته في

1- رواه أحمد في المسند وأبو داود والترمذي وابن حبان بإسناد صحيح.

2- رواه ابن حبان بإسناد صحيح.

كف الرحمن، فإذا رجال منهم على أفواههم النور، وإذا رجل يعجب آدم نوره، فقال: يا رب من هذا؟

قال: ابنك داوود.

قال: يا رب، فكم جعلت له من العمر؟

قال: جعلت له ستين.

قال: يا رب، فأتم له من عمري حتى يكون عمره مائة سنة ففعل الله ذلك وأشهد على ذلك.

فلما تقدم عمر آدم بعث الله إليه ملك الموت فقال آدم: أولم يبقَ من عمري أربعون سنة؟

قال له الملك: أو لم تعطها ابنك داوود؟.

فجحد ذلك، فجحدت ذريته ونسي فنسيت ذريته. (1)

أما عن خلق حواء عليها السلام فقد خلقها الله تعالى بعد خلق آدم عليه السلام لتكون زوجًا له في الجنة التي أسكنهما فيها إلى حين قبل أن يأمرهما بالهبوط إلى الأرض كي تكون لهما مستقرًّا وكذلك لذريتهما بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

وقال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189].

وقال أيضًا: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: 6].

وحواء هي أم البشر وهي أول امرأة في التاريخ الإنساني وسكنت هي وزوجها آدم

1- رواه أبو يعلى والترمذي والنسائي في عمل اليوم والليلة وكذلك رواه الحاكم في المستدرك.

عليهما السلام الجنة ثم عاشت معه على الأرض وقد ذكر ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن ابن مسعود رضي الله عنه وعن ناس من الصحابة رضي الله عنهم أنهم قالوا: أُخرج إبليس من الجنة واسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحشيًّا - أي بدون أنيس - ليس له فيها زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه.

فسألها: من أنت؟

قالت: امرأة

قال: ولما خلقت؟

قالت: لتسكن إليَّ

فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ علمه: ما اسمها؟

قال: حواء

قالوا: ولِـمَ كانت حواء!!

قال: لأنها خلقت من شيء حي.

ومن الأدلة التي ذكرت في أن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام: «استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقييمه - أي تعدله - كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرًا». (متفق عليه واللفظ للبخاري).

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها - أي حواء - خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه - أي ضلع - لحمًا ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

والله تعالى أعلى وأعلم.

البيت الأول لأول أسرة

البيت الأول هو الجنة لقوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 19].

ولكن أي جنة تلك التي سكنها آدم وحواء عليهما السلام هل هي جنة الخلد في السماء أم جنة من جنات الأرض أعدها الله لهما، فهي جنة لها مواصفات متاحة تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 118 - 119] ولهذا قال الله تعالى محذرًا آدم عليه السلام: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 117].

واختلف العلماء والمفسرون في تلك الجنة التي سكنها آدم وزوجه حواء فمنهم من قال إنها جنة الخلد لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38] وقوله ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36].

وقالوا إن الآيات من 35 – 38 من سورة البقرة فيها الإهباط إلى الأرض لآدم وحواء مرتين كما ذكرنا، فالأول ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36] كان لآدم وحواء والشيطان «إبليس» ثم الإهباط الثاني في الآية 38 ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، وإن هذا الإهباط الثاني غير الأول، فالأول من السماء إلى الأرض من جنة الخلد إلى الأرض ثم اهبطوا منها جميعًا لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بصيغة الجمع لاستتباعهما ذرياتهما قالوا إن الدليل عليه قوله: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38] فهو حكم يعم الناس كلهم.(1)

وهناك من يرى أنها جنة خاصة أعدها الله عز وجل لآدم وحواء تكون لهما دار ابتلاء وليست دار الجنة ودار الخلد التي هي دار جزاء في الآخرة، وقد اختلفوا أيضًا في مكان

1- اقرأ كتابنا قصة أبينا آدم من الطين إلى الجنة؛ الناشر: دار الكتاب العربي.

وجودها فمنهم من قال إنها في السماء أهبطهما منها وهذا قول الحسن البصري رحمه الله والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن أكل الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من أشجار الجنة.

وهناك من يرى أنها جنة في عالم جوف الأرض في الأرض الثانية. (1)

واستند من يقول إن الجنة التي سكنها آدم وحواء على الأرض أن كلمة الجنة لا تعني جنة الخلد وإنما تشمل صفات كثيرة، فقد قال تعالى ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: 17].

وقوله أيضًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ [الإسراء: 90-91].

وكذلك في سورة الكهف ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: 32].

فالجنة في الآيات السابقة هي جنة على الأرض وتعني الجنة هنا البستان المليء بالأشجار والثمار.

وكذلك كلمة ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ لا تعني الهبوط من السماء إلى الأرض ولكن يقصد بها أيضًا النزول من مكان ما على الأرض إلى مكان آخر مثل قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: 118] وهو صيغة وعد مرتبط بشرط بما قبلها أي هو حكم معلّق بشرط: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

وحتى لا نخوض في أمر الجنة التي سكنها آدم وحواء وقد فصلت ذلك في كتابنا «قصة أبينا آدم» نتجاوز هذا الخلاف ونكتفي بالقول أن المسكن الأول لآدم وحواء هو في مكان أعده الله لهما وهو مكان له طبيعة خاصة كالجنة وهو في حد ذاته جنة سواء كان في السماء أو في الأرض، المهم أنهما عاشا في تلك الجنة عيشة رغدة كما قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾

1- انظر كتاب جنة آدم في طباق الأرضين الست، لأسامة مرعي، الناشر: دار الكتاب العربي.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 117-119] ولكن كان هناك شرط لاستمرار تلك المعيشة الرغدة وهذا المتاع وهو عدم الأكل من شجرة معينة حتى لا يتم خروجهما من الجنة كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

وقد عاشا في الجنة التي خلقها الله فترة زمنية لا يعلمها إلا الله وحذر الله عز وجل آدم وزوجه من إبليس تحذيرًا شديدًا حين أمرهما أن يسكنا الجنة فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 117-119].

ولعل في ذلك إشارة إلى أن الجنة ليست فقط مكانًا نعيش فيه وإنما هي جنة الطاعة لله أيضًا، فحين تكون طائعًا لله وما أمرك به وكنت حيث أمرك الله وابتعدت عن طريق إبليس الذي هو عدوك اللدود ستكون في جنة ونعيم رباني يحسدك عليه أهل المال والسلطان.

وقد ظل آدم وحواء في الجنة يتمتعان وينعمان بما أعطاهما الله من نعم الله فيها عليهما لباس الجنة حتى وسوس لهما الشيطان «إبليس» وكانت أول خطيئة لهما أنهما استمعا إلى وسوسته ونسى آدم تحذير الله عز وجل من هذا الإبليس اللعين لأنه لو تذكر تحذير الله ما استمع إليه، حين قال له ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120].

لقد جاءه إبليس من باب المعصية بعد أن حرف اسم الشجرة المحرمة إلى شجرة الخلد وملك لا يبلى، وأراد آدم وحواء أن يظلا في الجنة وفي طاعة الله ولم يظن آدم أن هناك مخلوقًا يستطيع أن يقسم بالله أو يحلف كذبًا، فقد صدق إبليس حين أقسم أنه من الناصحين؛ قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 20-22].

وبعد أن ذهب آدم وحواء إلى الشجرة المحرمة عليهما أن يأكلا منها وأكلا منها، فوجئ

آدم وحواء بشيء عجيب وغريب يحدث لهما، فقد نزع عنهما لباس الجنة وأصبحا عريانين وذلك بسبب عصيانهما وهذا ما أراده إبليس، وعلى الفور أدركا ما فعلاه وأصابهما الخجل والحزن الشديد من حالهما، فأخذا يجريان نحو أشجار الجنة، وأخذا يقطعان من أوراقها ليسترا عورتيهما.

كما قال تعالى في وصف ذلك ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

وندم آدم وحواء ندمًا شديدًا على ما فعلاه من معصيتهما لأمر الله بعدم الأكل من الشجرة، ولاسيما أن الله عز وجل ناداهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 22]؟!!

وهنا بادر آدم وحواء بالتوبة والرجوع إلى ربهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

وقبل الله توبتهما ودعاءهما وأمرهما بالهبوط إلى الأرض ذلك المسكن الآخر لهما ولذريتهما لأن هذا هو الهدف من خلقهما حيث قال تعالى للملائكة قبل خلق آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

وقد يسأل أحدنا سؤالًا.. هل أنجب آدم وحواء ذرية في الجنة التي عاشا فيها فترة من الزمن؟

في الواقع أنه لا يوجد دليل من السنة النبوية عثرت عليها أو التفاسير لوجود ذرية لآدم وحواء في الجنة وإن كان هناك من يقول: إن «قابيل» هو من مواليد الجنة وهذا الرأي لم يقدم دليلًا على ذلك، وإن كان العقل والشرع لا يمنع من حدوث إنجاب للأب آدم والزوجة حواء، ولا سيما أن آيات الأمر بالإهباط لآدم وزوجه جاءت بصيغة الجمع «اهبطوا».

وأما عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء وكانت سببًا في إخراجهما من جنة النعيم حيث الاستقرار في الأرض وحيث الشقاء والتعب والبحث عن الرزق وأسباب الحياة

والشقاء، فقد ذكرنا ذلك في كتاب «قصة أبينا آدم» وقد ذكر الحق جل وعلا أنها شجرة دون تفصيل لها: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35].

وقد اختلف المفسرون في كونها والله أعلم بالصواب فهذا علم لا ينفع وجهل لا يضر.

المُهم أن آدم وحواء استقر بهما الحال في الأرض وتم إهباطهما كي يتحقق قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] وقد تعلما الدرس أن طاعة الله واجبة وإن عصيانه مذلة وأن الشيطان لهما ولذريتهما عدو مبين، وبالتالي لم يكن هبوطهما إلى الأرض إهانة لهما ولكنه هبوط كرامة، فقد تاب الله عليهما قبل أن يهبطا إلى الأرض.

وقد روى الأوزاعي بسنده أن آدم مكث في الجنة مائة عام وفي رواية ستين عامًا وبكى في الجنة سبعين عامًا على خطيئته وبكى على ولده حين قُتل أربعين عامًا.[1] والله أعلم.

1- رواه ابن عساكر.

آدم وحواء على الأرض يلتقيان

روى ابن أبي حاتم بسنده عن الحسن البصري قوله: أُهبط آدم بالهند وحواء بجدة وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال، وأُهبطت الحية بأصبهان – إيران حاليًا – [1]

وروى أيضًا بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن آدم أهبط إلى أرض يقال لها «دخنا» بين مكة والطائف.

وقال السدي نزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود وقبضة من ورق الجنة فبثه في الهند فنبتت شجرة الطيب هناك.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال إن الله حين أَهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شيء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير وتلك لا تتغير. [2]

وذكر الطبري في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن آدم حين أهبط إلى الأرض في الهند جاء في طلب حواء واجتمعا في المزدلفة وتعارفا بعرفات ولذلك سميت المزدلفة وكذلك عرفات.

وذكر الطبري أيضًا أن الجبل الذي أهبط عليه آدم ذروته من أقرب ذرا جبال الأرض إلى السماء، وقد أكد علماء الجغرافيا في العصر الحديث أن أعلى ارتفاع على سطح الأرض قمة جبل إفرست وهو من سلسلة جبال الهملايا بالهند وارتفاعه 8848 م.

وفي كتاب التاريخ الإسلامي يقول الأستاذ / محمود شاكر في الجزء الأول: إن آدم وجد على أغلب الظن في جنوب غربي آسيا وفي جزيرة العرب على أكبر احتمال على

1- انظر البداية والنهاية لابن كثير.

2- المصدر السابق.

الرغم من أن هناك آراء تقول: إنه وجد في الهند وأخرى تنادي بأنه في أول الأمر في شمالي العراق؟ ثم بدأ البشر بعد ذلك في التكاثر في هذه الجزيرة من نسلي آدم وحواء فهي بذلك أول مناطق الأرض استخلافًا.

المهم أن آدم وحواء التقيا واجتمعا على الأرض ليكون خليفة الله في الأرض كما أراد الله تعالى ويؤدي مهمته الأساسية بالحكم بالعدل وإنجاب الذرية التي منها الطائعون والعاصون لله وقد تعلم الدرس الأول في الجنة أنه بعد المعصية التوبة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: 115].

أي نسي ما أمره الله به ولم يكن له عزمٌ على الاستمرار في المعصية فتاب سريعًا. وقد روى الشيخان البخاري ومسلم حديثًا يوضح أن ما حصل لآدم عليه السلام وزوجه من الإهباط للأرض إنما كان قدر الله وأمر كتبه الله عليه قبل أن يخلقه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «حاجَّ موسى آدم عليهما السلام فقال أنت الذي أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم؟ قال: آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني أو قدره عليَّ قبل أن يخلقني.

قال رسول الله ﷺ: «فحج آدمُ موسى».[1]

1- وهذا الحديث روي بألفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى، وقال ابن كثير في البداية والنهاية، ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبي هريرة رضي الله عنه وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقانًا ثم هو مروي عن غيره من الصحابة كما ذكرنا، ونقول إن هذا اللقاء بين آدم وموسى عليهما السلام في الملإ الأعلى والله أعلم.

تمهيد الأرض لسكنى آدم عليه السلام وأبنائه

قال الله تعالى للملائكة الكرام أنه سيخلق مخلوقًا لعمارة الأرض كما قال في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]، أي أن الهدف من خلق آدم هو سكنَى الأرض وعمارتها ومن المعلوم أن الأرض خلقت قبل آدم عليه السلام وكذلك سائر الحيوانات والطيور.

ومن تراب الأرض خلق آدم عليه السلام، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: 55] قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية السابقة: أي من الأرض مبدؤكم فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض وفيها يعيدكم أي وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

وكلمة الأرض ترد في القرآن الكريم بثلاثة معان هي: الكوكب الأرضي كله أو صخور القارات التي عليه أو التربة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39] والمقصود هنا بالأرض هي التربة التي تعلو الصخور وليست الصخور نفسها، فقطاع التربة مستمد أصلًا من تعرية صخور قشرة الأرض، ومن أديم الأرض تم خلق آدم عليه السلام فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، وتربة الأرض تتكون بواسطة التحلل الكيميائي والحيوي للصخور كما تتكون نتيجة للتفكك الفيزيائي والميكانيكي بواسطة مختلف عوامل التعرية التي تؤدي إلى تكوين غطاء رقيق لصخور الغلاف الصخري للأرض من فتات وبسيس الصخور على هيئة حطام مفروط متباين في حجم الحبيبات من الجلاميد والحصى إلى الرمل والطمي والصلصال ويعرف ذلك باسم عادم الصخور الذي منه تراب الأرض.

وقد مرت على الأرض قبل نزول آدم وحواء عليهما السلام أزمنة كثيرة لا يعلمها إلا

الله وقد قال تعالى في خلق الأرض ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 9] وكذلك لا يعلم طول اليوم إلا الله، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47] وكذلك قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: 4].

ومن خلال دراسة صخور الأرض تمكن العلماء معرفة الأحقاب والأزمنة التي مرت بها الأرض حتى إنهم قسموها إلى حقبة ما قبل الحياة وهي ما قبل 3500 مليون سنة وكانت الأرض لا تزال ملهبة لا يمكن العيش عليها أو نمو الحياة عليها وبالتالي لا تصلح لسكنَى آدم وذريته.

ثم كانت عملية تمهيد الأرض لسكنى آدم وحواء وذريتهما حيث بدأت الأرض الملتهبة تبرد وتظهر عليها أنواع الحياة المختلفة تباعًا.

قال تعالى ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: 9 - 10].

هكذا خلقت الأرض في يومين لا يعلم طولهما إلا الله ثم أربعة أيام أخرى قدر الله فيها أقوات وأرزاق الخلق من إنسان وحيوان ونبات وطير وجني، وجعل فيها رواسيَ من الجبال ثم طرح فيها البركة حيث ظهرت النباتات على الأرض ثم ظهرت الحيوانات ومظاهر الحياة القديمة.

ويقدر العلماء أن هناك أربعة عصور جليدية قد مرت على الأرض وكان آخرها منذ 30 ألف سنة تقريبًا وكان نزول آدم وحواء على الأرض في بداية فترة الدفء بعد العصر الجليدي الرابع منذ حوالي 20 ألف أو 15 ألف سنة تقريبًا.

ولا شك أن الأرض كانت ممهدة لحياة آدم وزوجه ثم ذريتهما حيث نزلا بأمر الله تعالى عليها وكان سلاح العلم الذي سلح الله به آدم عليه السلام أهم أسلحته للبقاء على الأرض من هذا العلم الزراعة والصناعة وفن القتال لمحاربة الحيوانات المفترسة وما إلى ذلك من أسباب الحياة التي يحتاج إليها أي إنسان.

أول أعمال آدم وحواء على الأرض

حين أُهبط آدم عليه السلام على الأرض يسر له عز وجل أسباب العيش والمعيشة عليها وفي هذا قال ابن الأثير:

ثم إن الله تعالى أهبط آدم قبل غروب الشمس من اليوم الذي خلقه فيه، وهو يوم الجمعة، مع زوجه حواء من السماء فقال عليّ، وابن عباس وقتادة وأبو العالية: إنه أهبط بالهند على جبل يقال له نود من أرض سرنديب، وحواء بجدّة، قال ابن عباس: فجاء في طلبها فكان كلّما وضع قدمه بموضع صار قرية، وما بين خطوتيه مفاوز، فسار حتى أتى جمعًا (المزدلفة) فازدلفت إليه حواء، فلذلك سميت المزدلفة، وتعارفا بعرفات فلذلك سميت عرفات، واجتمعا بجمع فلذلك سميت جمعا. وأهبطت الحيّة بأصفهان، وإبليس بميسان. وقيل: أهبط آدم بالبرية، وإبليس بالأُبُلَّة.[1]

قال ابن عباس: فلما أهبط آدم على جبل نود كانت رجلاه تمسان الأرض ورأسه بالسماء يسمع تسبيح الملائكة، فكانت تهابه، فسألت الله أن ينقص من طوله فنقص طوله إلى ستين ذراعًا، فحزن آدم لما فاته من الإنس بأصوات الملائكة وتسبيحهم، فقال: يا ربّ كنت جارك في دارك ليس لي ربّ غيرك أدخلتني جنّتك آكل منها حيث شئت وأسكن حيث شئت فأهبطتني إلى الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأجد ريح الجنة فحططتني إلى ستين ذراعًا، فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهبت عني ريح الجنّة فأجابه الله تعالى: بمعصيتك يا آدم فعلت بك ذلك.

فلما رأى الله تعالى عري آدم وحواء أمره أن يذبح كبشا من الضأن من الثمانية الأزواج التي أنزل الله من الجنة، فأخذ كبشا، فذبحه، وأخذ صوفه. فغزلته حواء، ونسجه آدم، فعمل لنفسه جبة، ولحواء درعا، وخمارا، فلبسا ذلك.

1- الكامل في التاريخ – لابن الأثير.

وقيل: أرسل إليهما ملكا يعلمهما ما يلبسانه من جلود الضأن، والأنعام وقيل: كان ذلك لباس أولاده، وأمّا هو وحوّاء فكان لباسهما ما كانا خصفا من ورق الجنة، فأوحى الله إلى آدم: إن لي حرمًا حيال عرشي فانطلق وابنِ لي بيتًا فيه ثم طف به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي، فهنالك أستجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي. فقال آدم يا ربّ وكيف لي بذلك لست أقوى عليه ولا أهتدي إليه، فقيّض الله ملكًا فانطلق به نحو مكة، وكان آدم إذا مر بروضة قال للملك: انزل بنا ههنا. فيقول الملك: مكانك، حتى قدم مكة، فكان كل مكان نزله آدم عمرانا، وما عداه مفاوز. فبنى البيت من خمسة أجبل: من طور سينا، وطور زيتون، ولبنان، والجودي، وبنى قواعده من حراء، فلما فرغ من بنائه خرج به الملك إلى عرفات، فأراه المناسك التي يفعلها الناس اليوم، ثم قدم به مكة فطاف بالبيت أسبوعا[1]، ثم رجع إلى الهند فمات على نود.[2]

وقيل: حج آدم من الهند أربعين حجة ماشيًا، ولما نزل إلى الهند كان على رأسه إكليل من شجر الجنة، فلما وصل إلى الأرض يبس فتساقط ورقه فنبتت منه أنواع الطيب بالهند. وقيل: بل الطيب من الورق الذي خصفه آدم وحواء عليهما.

وقيل: لما أُمر بالخروج من الجنة جعل لا يمر بشجرة منها إلا أخذ منها غصنا فهبط وتلك الأغصان معه فكان أصل الطيب بالهند منها، وزوّده الله من ثمار الجنة، فثمارنا هذه منها، غير أن هذه تتغير، وتلك لا تتغير، وعلمه صنعة كل شيء، ونزل معه من طيب الجنة، والحجر الأسود، وكان أشد بياضا من الثلج، وكان من ياقوت الجنة، ونزل معه عصا موسى، وهي من آس الجنة، ومن لبان، وأنزل بعد ذلك العلاة والمطرقة والكلبتان.[3]

وقيل إن جبريل عليه السلام نزل على آدم وهو على الأرض وعلم آدم كيف يقوم بزراعة الحنطة وأعطاه الحبوب ينثرها في الأرض ففعل، فأنبته الله من ساعته، ثمّ حصده

1- أي سبعة أشواط.

2- المصدر السابق.

3- أدوات الحدادة.

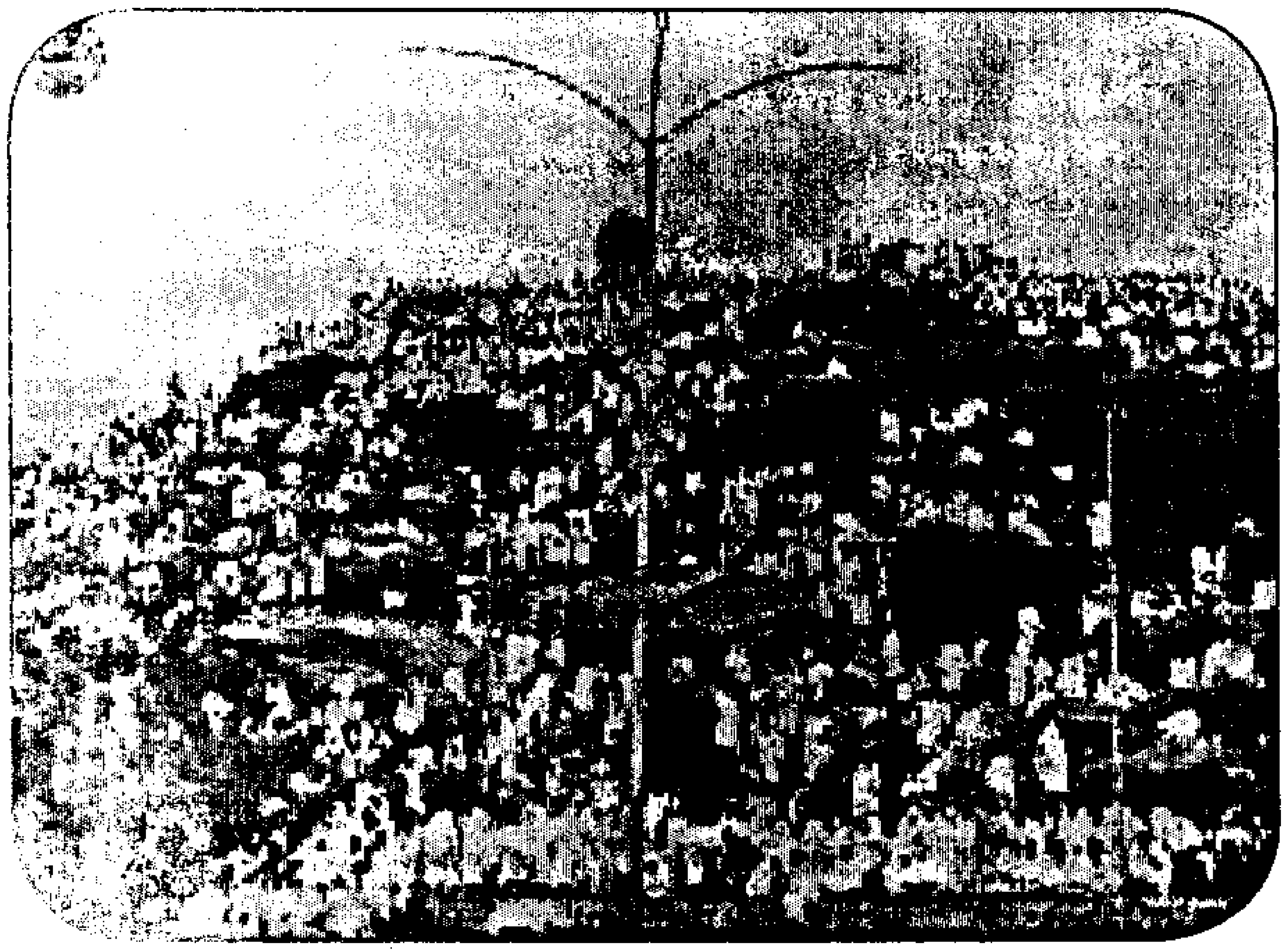
وجمعه وفركه وذرّاه وطحنه وعجنه وخبزه، كل ذلك بتعليم جبرائيل، وجمع له جبرائيل الحَجر والحديد فقدحه فخرجت منه النار، وعلَّمه جبرائيل صنعة الحديد والحراثة، وأنزل إليه ثورًا، فكان يحرث عليه، قيل هو الشقاء الذي ذكره الله تعالى بقوله ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: 117].

قال ابن الأثير رحمه الله:

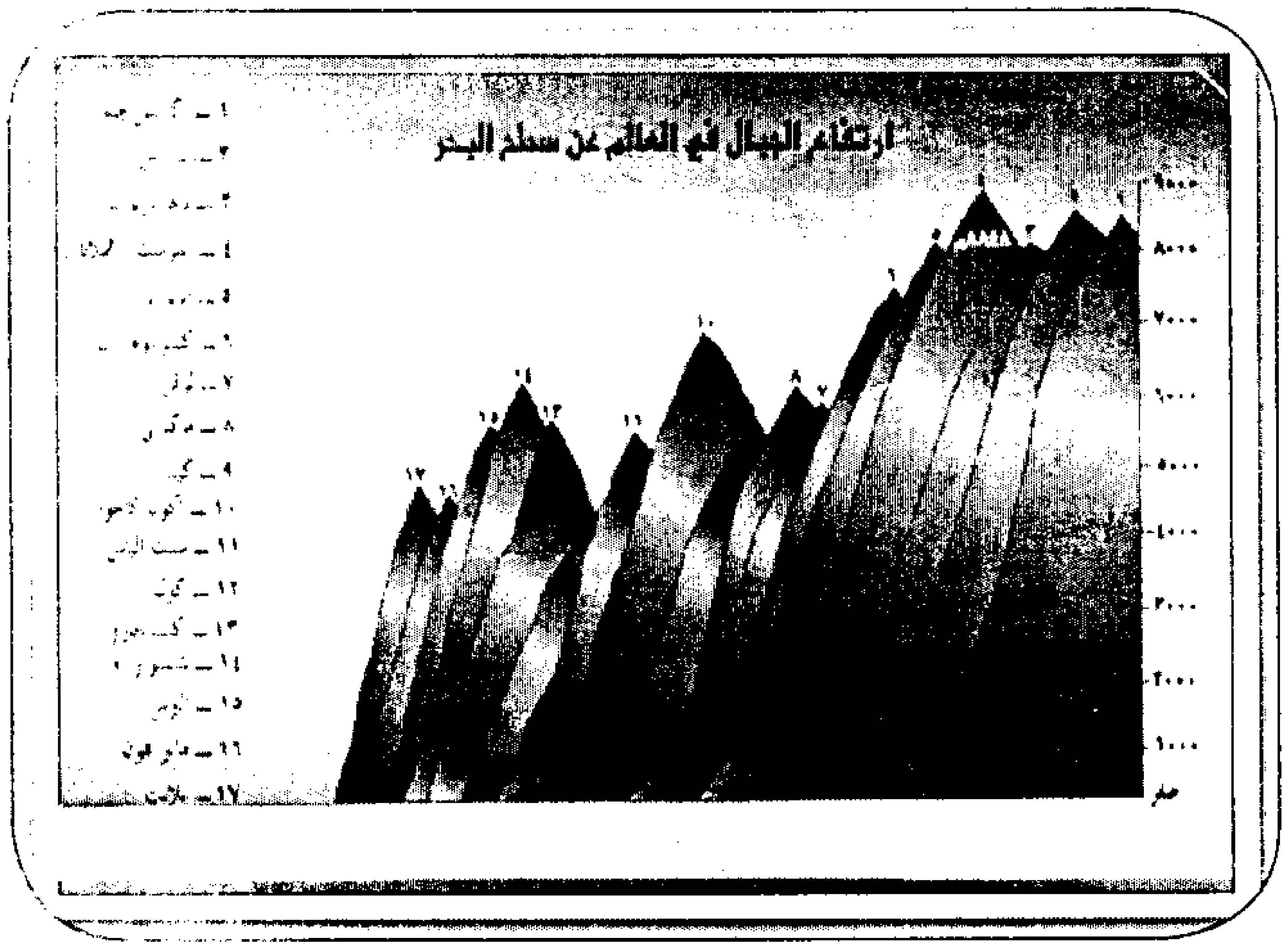
ثم إن الله أنزل آدم من الجبل وملكه الأرض وجميع ما عليها من الجن، والدواب، والطير، وغير ذلك، فشكا إلى الله تعالى وقال: يا رب، أما في هذه الأرض من يسبحك غيري؟

فقال الله تعالى: سأخرج من صلبك من يسبّحني ويحمدني، وسأجعل فيها بيوتًا ترفع لذكري، وأجعل فيها بيتًا أختصه بكرامتي وأسمّيه بيتي وأجعله حرمًا آمنا، فمن حرّمه بحُرمتي، فقد استوجب كرامتي، ومن أخاف أهله فيه فقد خفر ذمّتي وأباح حرمتي، أوّل بيت وضع للناس فمن اعتمده لا يريد غيره فقد وفد إليّ وزارني وضافني، ويحقّ على الكريم أن يكرم وفده وأضيافه وأن يسعف كلًّا بحاجته؛ تعمره أنت يا آدم ما كنت حيًّا، ثم تعمره الأمم والقرون والأنبياء من ولدك أمّة بعد أمّة.

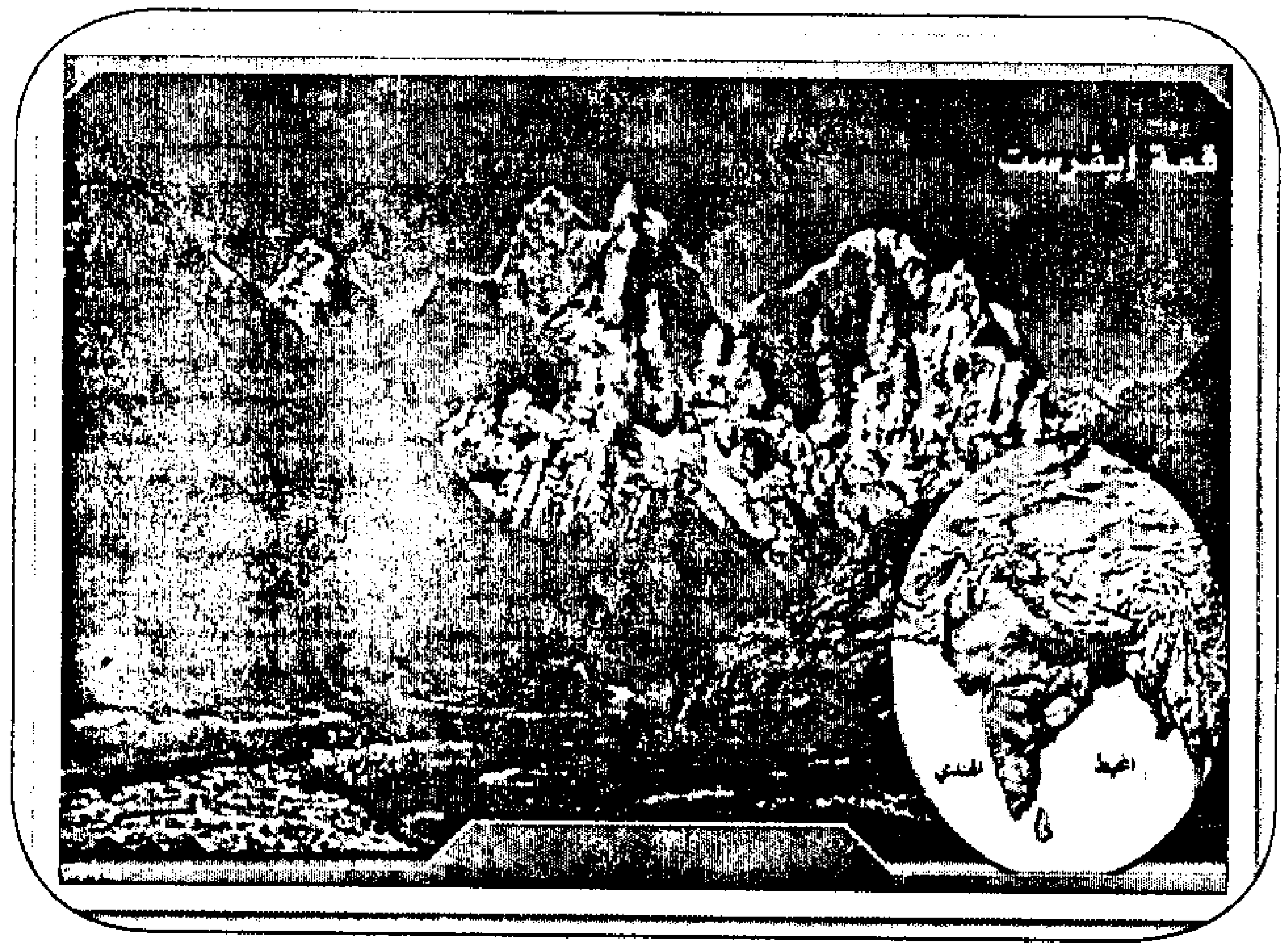
ثم أمر آدم أن يأتي البيت الحرام، وكان قد أهبط من الجنّة ياقوتة واحدة، وقيل: درّة واحدة، وبقي كذلك حتى أغرق الله قوم نوح عليه السلام، فرفع وبقي أساسه، فبوّأ الله لإبراهيم عليه السلام مكانه فبناه؛ كما جاء ذكر ذلك في القرآن الكريم.



أرض عرفات بالحجاز التي التقى عليها آدم وحواء بعد هبوطهما من الجنة.



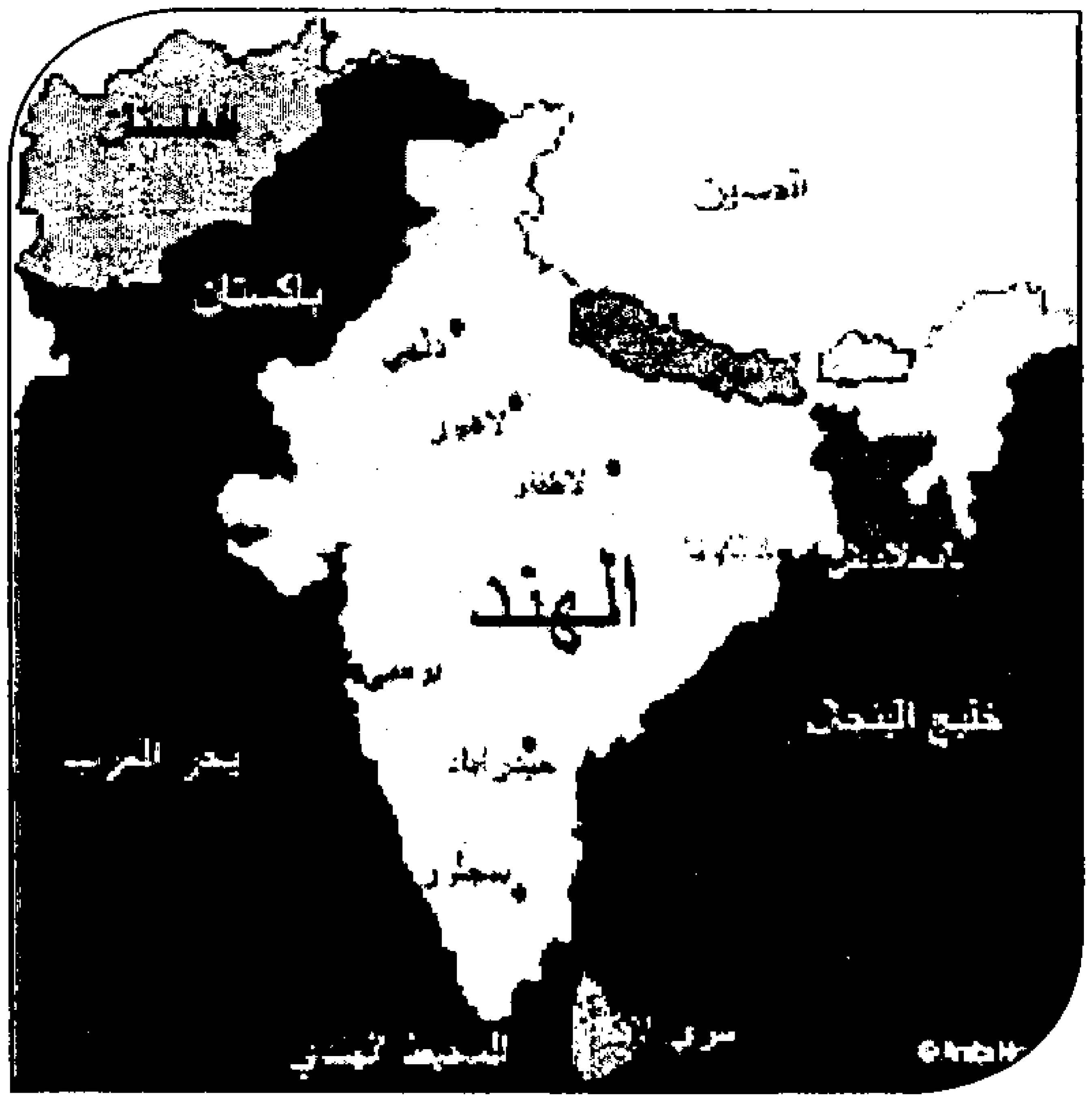
ارتفاع الجبال في العالم حسب مستوى سطح البحر.



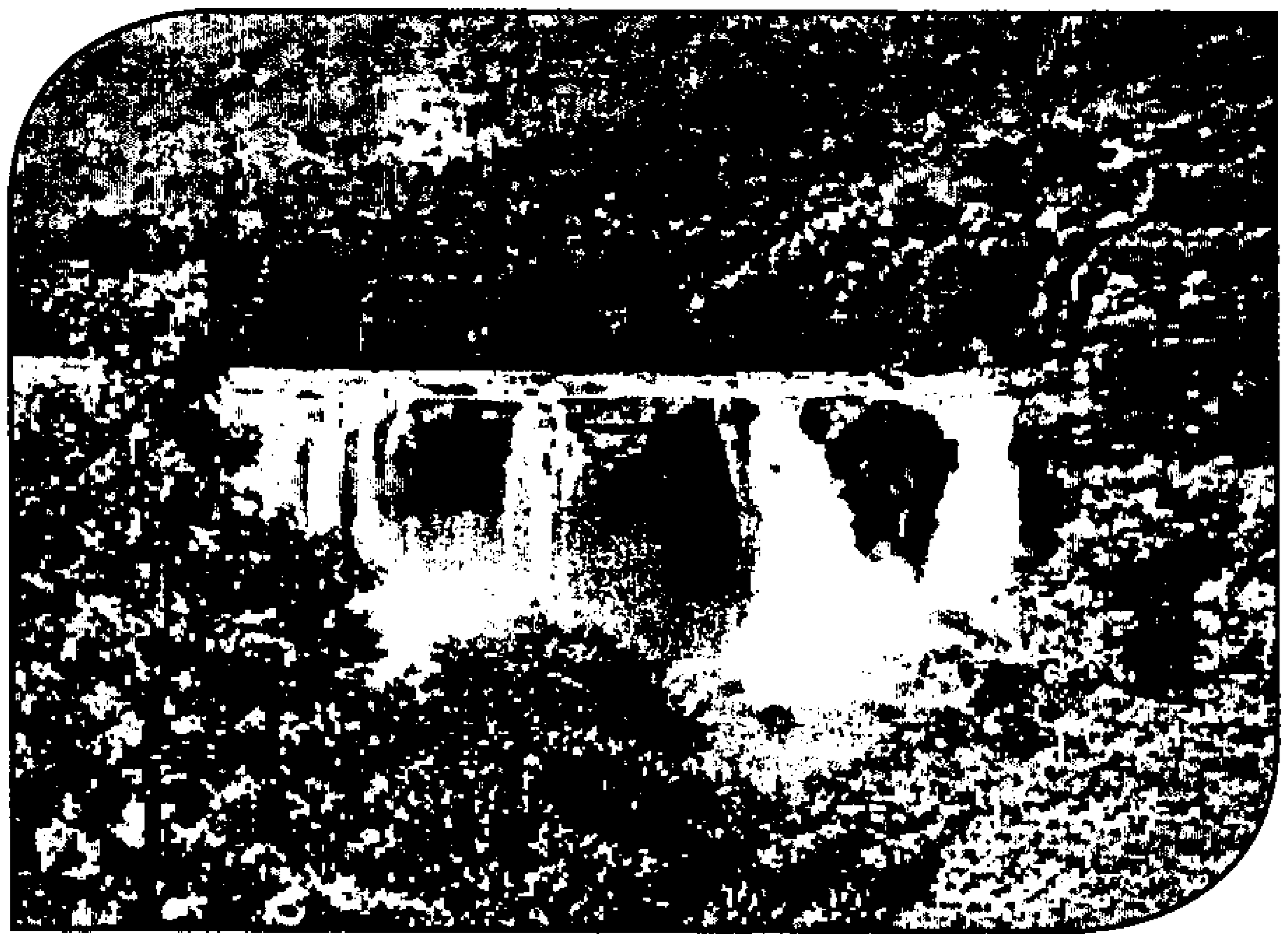
قمة أفرست أعلى ارتفاع عن سطح البحر وهي من سلسلة جبال الهملايا ببلاد الهند حيث يبلغ ارتفاعها ٨٨٤٨م وهو الجبل الذي قيل إنه أهبط الله سبحانه وتعالى عليه آدم عليه السلام كما نصت بذلك روايات المؤرخين المسلمين كالطبري وابن الأثير.



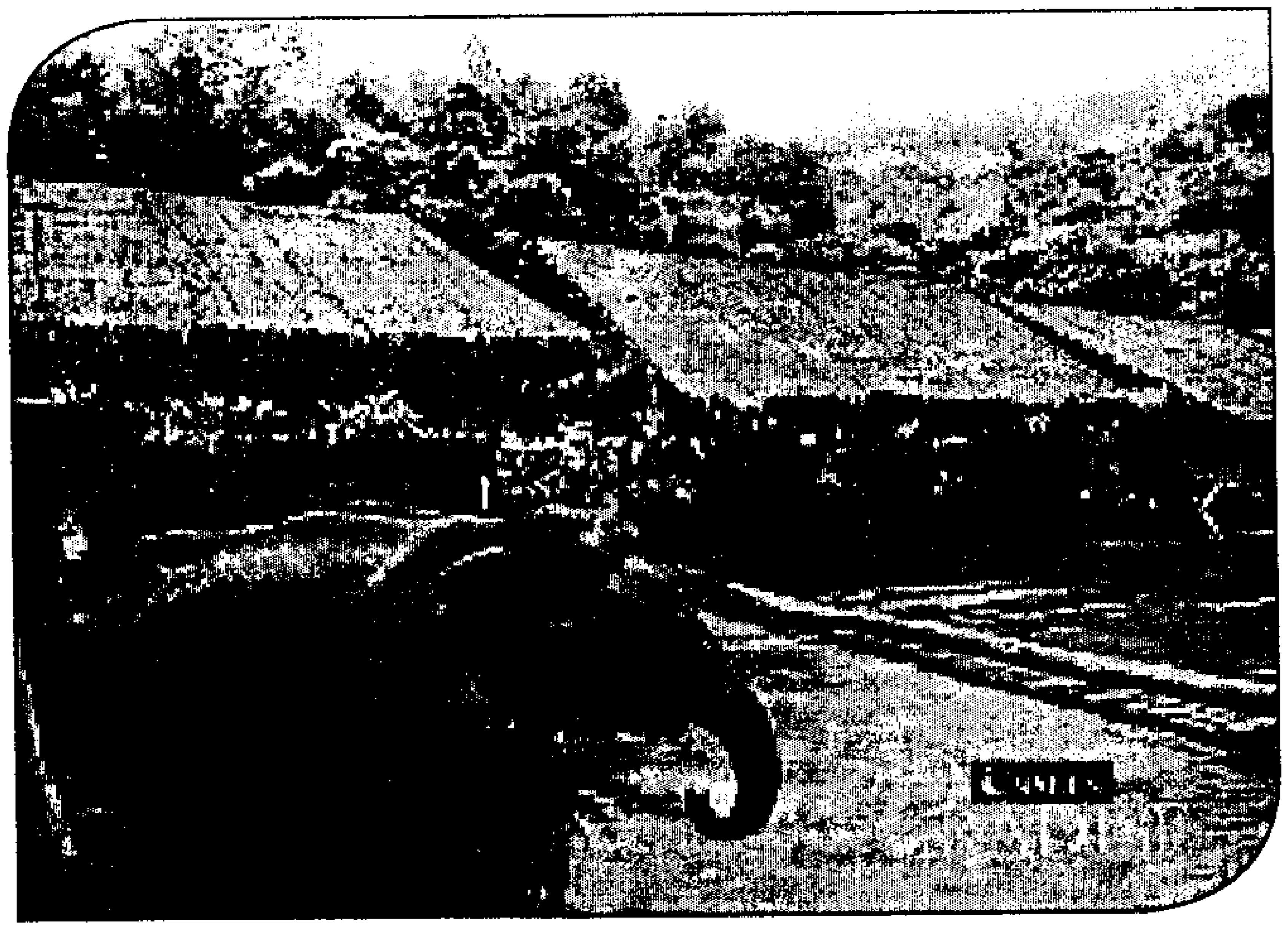
مكان هبوط آدم وحواء عليهما السلام حسب ما ذكره بعض المؤرخين العرب.



خريطة شبه القارة الهندية التي هبط إليها آدم عليه السلام من الجنة.



مشهد الطبيعة الخلابة الساحرة لأرض الهند.



الهند من أجمل بقاع الأرض.

2 أبناء آدم عليه السلام

- معنى اسم قابيل وهابيل في قاموس المعاني وغيره.
- ميلاد قابيل وهابيل.
- هل وُلد قابيل في الجنة؟
- قابيل وهابيل وأول جريمة قتل على الأرض.
- كيف قتل قابيل أخاه هابيل؟
- ماذا فعل قابيل بجثة هابيل بعد قتله؟
- سبب النزاع بين قابيل وهابيل.
- آدم وذريته عند أهل الفرس.
- وفاة آدم عليه السلام ووصيته لابنه شيث تجاه أخيه قابيل.
- شبهات حول آدم وحواء عليهما السلام.
- مغارة الدم أو مغارة الأربعين ودفن هابيل بها.
- لماذا اختار اللّه الغراب ليعلم قابيل كيفية دفن أخيه هابيل بعد أن قتله؟
- بنو إسرائيل وقصة قابيل وهابيل.

معنى اسم قابيل وهابيل في قاموس المعاني وغيره

١- قابيل:

اسم أحد أبناء آدم وحواء، ولم يرد اسمه ولا اسم أمه في القرآن صراحةً، لكنَّ قصته مع أخيه هابيل وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: 27]. وقابيل أكبر من هابيل، وقد اشتغل بالحرث والزرع، بينما اشتغل هابيل برعي الأغنام والضرع. وهو الذي قتل أخاه، فكان أولَ قاتل على الأرض. اسم قابيل سامي قديم قبل ظهور العرب وغيرهم، ولفظه بالعبرية «قايين» ومعناه: الحدّاد.

ولم يرد في الكتب أنه عمل في الحدادة. ومع أن الاسم يدل على القتيل، واسم أخيه هابيل على الشهادة، فإن القوم سمَّوا بقابيل أكثر من هابيل، لأنهم يعتقدون أن كلمة هابيل تدل على الهبل!!

وهناك من قال إن اسم قايين في العبرية يعني الحداد لأن قابيل اتخذ مهنة الفلاحة والحدادة أو صناعة الدروع الحربية وهذا من أقوال شراح العهد القديم.

وقابيل هو الاسم الذي أطلقه العرب على ابن آدم الأول، وفي العبرية نجد أن «إريل» تعني الله و«قبل» تعني المشتكي أو المتظلم أي المشتكي على الله والمعترض عليه وهذا ما فعله قابيل ولهذا يكون إطلاق الاسم عليه بعد أن قتل أخاه.

ومعاجم اللغة العربية توجد كلمة القابياء وتعني اللئيم والقبقات أي الكذاب، و«القين» أي الحداد، والقينات أي المغنيات التي تعزف على آلات الطرب والغناء. والله أعلم.

وفي الإصحاح الرابع من العهد القديم لدى أهل الكتاب:

يقولون «قايين»:

وقايين : اسم عبري معناه مكسب.

وهابيل : اسم عبري معناه نسمة، نفخة.

بعدما طرد الرب آدم وحواء من جنة عدن أطلق آدم اسم حواء على امرأته لأنها أم كل حي.

ومعنى اسم آدم «أحمر» وأصل الكلمة أدمية والتي تعني «التراب الأحمر» فخلق الله آدم من التراب وأطلق عليه آدم.

وولدت حواء ابنا ودعوه قايين ومعنى اسمه «المقتني أو المخلص» والمعني الكامل (اقتنيت رجلا هو الرب) وهذا معناه أن حواء تصورت أن ابنها هو المخلص أو هي تنسب لله الخلق.

٢- هابيل:

معنى اسمه غير ثابت أو زائل كالبخار وهذا الاسم قد تكون حواء أطلقته على ابنها بعد أن قتله قايين أخوه فقالت إنه زال كما يزال البخار.

أو تكون أسمته هذا الاسم لأنها تيقنت أن كل إنسان مصيره الزوال حسب قضاء الرب.

ونلاحظ أن الأسماء غالبًا كانت تطلق على الإنسان ليس وهو صغير فالعدد كان قليلاً لا يحتاج لأسماء للتمييز (وهذا سوف نلاحظه في أسماء أولاد قايين).

أو لأن حواء تصورت أن قايين هو المخلص الذي أرسله الله وكل ما سواه هو هباء «في 8:3» وكان هابيل راعيًا للغنم وهكذا كان داود، وكان المسيح هو الراعي الصالح ونلاحظ هنا ورود اسم هابيل قبل قايين.

وفي قاموس الكتاب المقدس جاء عن معنى اسم «هابيل»:

ربما كان اسماً سامياً معناه «نسمة، بخار» أو اسماً أكاديًّا معناه «ابن» وهو رابع البشرية،

والابن الثامن لآدم وحواء. وكان راعياً للغنم، بينما كان أخوه قايين مزارعاً. وكان هابيل تقيًّا، حتى إن المسيح لقبه بالصديق (مت 23: 35).

وحدث أن قدم هابيل باكورة أغنامه وسمانها قرباناً للرب. أما قايين فقدم قربانه من أثمار الأرض. فرضي الرب عن قربان هابيل ولم ينظر إلى قربان أخيه الأكبر.

وغضب قايين وقتل أخاه. وأصبح هابيل أول شهيد في الأرض، وقايين أول مجرم. وأنكر قايين الجريمة لما سأله الرب عن أخيه فلع الرب وطرده من سكنه، وأقام في أرض نود شرقي عدن (تك 4: 1-16). وقد استشهد يوحنا في رسالته الأولى بأعمال هابيل البارِدة وندد بأعمال أخيه الشريرة (1 يو 3: 12) وقال عنه كاتب سفر العبرانيين إنه قدم ذبيحة لله أفضل من قايين، وبه شهد له أنه بار إذ شهد الله لقرابينه، وبه وإن مات يتكلم بعد (عب 11: 4).

ميلاد قابيل وهابيل

لا خلاف في أن قابيل هو بكر آدم عليه السلام، ولكن أهل العلم اختلفوا في اسمه فقالوا: قين وقالوا: قائين وقالوا: قاين[1] وذكر في العهد القديم سفر التكوين باسم «قايين» والمشهور عند علماء المسلمين باسم «قابيل»، وهو مكون من جزئين «قاب وأيل» بمعنى الضد لله أو المعادي لله وأيضًا المشتكى أو المتظلم على الله والمعترض عليه كما ذكرنا من قبل.

وكانت حواء تنجب في كل بطن لها توأمين فأنجبت أولًا قابيل وأنثى توأمًا له ثم أنجبت هابيل ومعه أنثى توأمًا له وهكذا حتى أكملت أربعين بطنًا كما قال أهل التواريخ والتفاسير.

قال القرطبي في تفسيره لآيات سورة المائدة ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكرًا وأنثى - إلا شيثا عليه السلام فإنها ولدته منفردًا عوضًا عن هابيل، واسمه هبة الله - يقصد شيث - لأن جبريل عليه السلام قال لحواء لما ولدته: هذا هبة الله لك بدل هابيل وكان آدم يوم ولد شيث ابن ثلاثين ومائة سنة وكان يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر ولا تحل له أخته توأمته، فولدت مع قابيل أختًا جميلة اسمها «إقليما»، ومع هابيل أختًا ليست كذلك - أي ليست بجمال إقليما - واسمها «ليوذا».

فلما أراد آدم تزويجها قال قابيل: أنا أحق بأختي.

فأمره آدم فلم يأتمر وزجره فلم ينزجر.[2]

1- انظر الكامل في التاريخ - لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ).

2- انظر تفسير القرطبي.

وسيأتي ذكر ما حدث بعد ذلك في حينه إن شاء الله.

وقد ذكر البعض أن قابيل وأخته التوأم قد ولدا في الفترة التي كان آدم وحواء يعيشان فيها في الجنة، وأن هابيل وأخته التوأم ولدا بعد أهبط آدم وحواء إلى الأرض أي أن قابيل من مواليد الجنة وهابيل من مواليد الأرض. قال ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ: كان آدم يغشى حواء في الجنة قبل أن يصيب الخطيئة فحملت له فيها - أي الجنة - بقابيل بن آدم وتوأمته فلم تجد عليها وحمًا ولا وصباً ولم تجد عليها طلقًا حين ولدتها ولم تر معها دمًا لطهر الجنة، فلما أكلا من الشجرة وهبطا إلى الأرض فاطمأنا بها تغشاها فحملت بهابيل وتوأمته فوجدت عليها الوحم والوصب - التعب - والطلق حين ولدتها ورأت معها الدم.

وكانت حواء يذكرون لا تحمل إلا توأمًا «ذكرًا وأنثى» فولدت حواء لآدم أربعين ولدًا لصلبه من ذكر وأنثى في عشرين بطنًا، وكان الولد منهم أي أخواته شاء تزوج إلا توأمته التي تولد معه، وذلك لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم وأمهم حواء، فأمر آدم ابنه قابيل أن ينكح توأمة هابيل وأمر هابيل أن ينكح توأمة أخيه قابيل.(1)

وقال الطبري في تفسيره وفي تاريخه: «حدثني موسى بن هارون قال: ثنا عمرو ابن حماد قال: ثنا أسباط عن السدي في خبر ذكره عن أَبي مالك وعن أَبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم قال: كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له اثنان، يقال لهما: قابيل وهابيل، وكان قابيل صاحب زرع وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هي أختي ولدت معي وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوجها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى، وإنهما قربا قربانًا إلى الله أيهما أحق بالجارية، وكان آدم يومئذ قد غاب عنهما، أي بمكة ينظر إليها.

1- الكامل في التاريخ - عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير توفي سنة ٦٣٠ هجرية.

فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72].

قال الطبري: «فإن كان ذلك صحيحًا – ولست أعلمه صحيحًا –؛ إذ كنت بإسناده مرتابًا».

قال ابن كثير: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة؛ فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة – والله أعلم –، والحاكم يروي في (مستدركه) بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخاري.

وعلق الشيخ أحمد شاكر – رحمه الله – على مقولة الطبري السابقة بقوله: «وحُقَّ لأبي جعفر –رحمه الله– أن يرتاب في إسناده، فإن هذا الإسناد فيه تساهل كثير، من جهة جمع مفرق التفاسير عن الصحابة في سياق واحد، تجمعه هذه الأسانيد. فإذا كان الأمر في تفسير معنى آية، كان سهلاً ميسوراً قبوله، إذ يكون رأياً أو آراء لبعض الصحابة في معنى الآية، وما في ذلك بأس، أما إذا ارتفع الخبر إلى درجة الحديث، بالإخبار عن واقعة معينة، أو وقائع، كانت على عهد رسول الله ﷺ، من أسباب لنـزول بعض الآيات، أو نحو ذلك مما يلحق بالحديث المرفوع لفظاً أو حكماً، كان قبول هذا الاسناد – إسناد تفسير السّدي– محل نظر وارتياب».

وممن ذكر أن قابيل وتوأمته من مواليد الجنة محمد بن إسحاق نقلًا عن بعض أهل الكتاب حيث قال: إن آدم أمر ابنه قينًا «قابيل» أن ينكح أخته توأمة هابيل ورضي وأبى ذلك «قين» وكره، تكرهًا عن أخت هابيل ورغبًا بأخته عن هابيل وقال: نحن ولادة الجنة وهما ولادة الأرض وأنا أحق بأختي، ويقول أهل العلم بالكتاب الأول: كان أخت «قاين» من أحسن الناس – أي جميلة – فضن بها عن أخيه وأرادها لنفسه فالله أعلم.[1]

1- انظر تفسير ابن كثير لآية سورة المائدة ٢٧.

هابيل وقابيل وأول جريمة قتل على وجه الأرض

استقر آدم وحواء عليهما السلام على الأرض كما أمرهما ربهما وقد هيأ لهما أسباب العيش، وسواء أنجبت حواء قابيل في الجنة أم بعد الهبوط والاستقرار على الأرض، فقد تكونت أول أسرة على وجه الأرض في السنوات الأولى من استقرار آدم وحواء عليها، فأصبح لديهما ولدان وابنتان، كما ذكر أهل التواريخ والتفاسير كان لقابيل أخت له ولدها معه وكذلك هابيل.

ولأجل التكاثر وانتشار الذرية على الأرض شرع الله لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال فكان انثى هذا البطن لذكر البطن الآخر، ولا يحق للذكر أن يتزوج من أخته التي ولدت معه في نفس البطن وإنما أخرى من بطن غيرها.

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: 27 - 31].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة، وخاب القاتل ورجع بالصفقة

الخاسرة في الدارين، فقال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾، أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم، وهما هابيل وقابيل، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف».

ثم ذكر أقوال المفسرين فقال:

قال السدي فيما ذكر عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: هابيل وقابيل وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه، وقال هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها.

فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى، وأنهما قربا قرباناً إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية، وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما، أتى مكة ينظر إليها، قال الله عز وجل: هل تعلم أن لي بيتاً في الأرض؟

قال: اللهم لا. قال: إن لي بيتاً في مكة، فأته.

فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة فأبت. وقال للأرض فأبت، وقال للجبال فأبت، فقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك.

فلما انطلق آدم قربا قرباناً وكان قابيل يفخر عليه، فقال: أنا أحق بها منك هي أختي وأنا أكبر منك وأنا وصي والدي، فلما قربا قرب هابيل جذعة سمينة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبلة عظيمة، ففركها وأكلها فنزلت النار، فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي.

فقال هابيل إنما يتقبل الله من المتقين. (رواه ابن جرير الطبري أيضًا في التفسير والتاريخ).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن خيثم قال: أقبلت مع سعيد بن جبير، فحدثني عن ابن عباس، قال: نهي أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي، فقال لا ، أنا أحق، فقربا قرباناً فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله (إسناد جيد).

وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: (إذ قربا قربانا) فقربا قربانهما، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصبرة من طعام، فقبل الله الكبش فخزنه في الجنة أربعين خريفا، وهو الكبش الذي ذبحه إبراهيم ﷺ (إسناد جيد).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشارحدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن أبي المغيرة عن عبد الله بن عمرو، قال: إن ابني آدم اللذين قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، وإنهما أمرا أن يقربا قرباناً، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشر حرثه الكودن والزوان، غير طيبة بها نفسه، وإن الله عز وجل، تقبل قربان صاحب الغنم ، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه، قال: وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط (يده) إلى أخيه.

وقال إسماعيل بن رافع المدني القاص: بلغني أن ابنيْ آدم لما أُمرا بالقربان، كان أحدهما صاحب غنم وكان أنتج له حمل في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل، وكان يحمله على ظهره من حبه، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه، فلما أمر بالقربان قربه لله عز وجل فقبله الله منه، فما زال يرتع في الجنة حتى فدي به ابن إبراهيم عليه السلام (رواه ابن جرير الطبري).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا الأنصاري حدثنا القاسم بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن على بن الحسين، قال: قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل: إن ربي عهد إليَّ أنه كائن من ذريتي من يقرب القربان، فقربا قرباناً حتى تقر عيني إذا تقبل قربانكما فقربا وكان هابيل صاحب غنم فقرب أكولة غنم خير ماله وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة من زرعه فانطلق آدم معهما ومعهما قربانهما فصعدا الجبل فوضعا قربانهما.

ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان فبعث الله ناراً حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل فانصرفوا.

وعلِم آدم أن قابيل مسخوط عليه فقال: ويلك يا قابيل رُد عليك قربانك.

فقال قابيل أحببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ورد على قرباني.

وقال قابيل لهابيل لأقتلنك فأستريح منك دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك.

وكان يتوعده بالقتل إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه فقال آدم: يا قابيل أين أخوك؟

قال: وبعثتني له راعيا لا أدري.

فقال له آدم: ويلك يا قابيل انطلق فاطلب أخاك.

فقال قابيل في نفسه: الليلة أقتله.

وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب، فقال: يا هابيل تقبل قربانك ورد على قرباني لأقتلنك.

فقال هابيل: قربت أطيب مالي وقربت أنت أخبث مالك وإن الله لا يقبل إلا الطيب إنما يتقبل الله من المتقين.

فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها فقال: ويلك يا قابيل أين أنت من الله كيف يجزيك بعملك؟

فقتله فطرحه في حوبة من الأرض وحثى عليه شيئاً من التراب.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توأمة هابيل وأمر هابيل أن ينكح توأمة قابيل فسلم لذلك هابيل ورضي وأبى ذلك قابيل وكره تكرهاً عن أخت هابيل ورغب بأخته عن هابيل وقال: نحن من ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض وأنا أحق بأختي ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قابيل من أحسن الناس فضن بها على أخيه وأرادها لنفسه والله أعلم.

أي ذلك كان فقال له أبوه: يا بني، إنها لا تحل لك، فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه. فقال له أبوه: يا بني قرّب قرباناً ويقرب أخوك هابيل قرباناً فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكان قابيل على بذر الأرض.

وكان هابيل على رعاية الماشية فقرب قابيل قمحاً وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه وبعضهم يقول: قرب بقرة فأرسل الله ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله (رواه ابن جرير).

وقال العوفي عن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل. فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا قرباناً، وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله وإن لم يكن رضيه الله خبت النار، فقربا قرباناً، وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما، فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قربانًا فتقبل منك ورد علي؟ فلا والله لا ينظر الناس إليّ وأنت خير مني.

فقال: لأقتلنك

فقال له أخوه: ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله من المتقين (رواه ابن جرير).

فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارئ في امرأة، كما

تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم وهو ظاهر القرآن: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] فالسياق يقتضي أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه.

قال ابن كثير: ثم المشهور عند الجمهور أن الذي قرب الشاة هو هابيل وأن الذي قرب الطعام هو قابيل وأنه تقبل من هابيل شاته، حتى قال ابن عباس وغيره إنها الكبش الذي فدي به الذبيح وهو مناسب، والله أعلم، ولم يتقبل من قابيل.

كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف وهو المشهور عن مجاهد أيضاً، ولكن روى ابن جرير عنه أنه قال الذي قرب الزرع قابيل وهو المتقبل منه وهذا خلاف المشهور ولعله لم يحفظ عنه جيداً والله أعلم.

ومعنى قوله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي ممن اتقى الله في فعله ذلك.

عن تميم يعني ابن مالك المقري، قال: سمعت أبا الدرداء يقول: لإن أستيقن أن الله قد تقبل لي صلاة واحدة أحب إليّ من الدنيا وما فيها إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.(1)

وقوله ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب.

قال عبد الله بن عمرو: وايم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج، يعني الورع، ولهذا ثبت في الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه».(2)

1- رواه ابن أبي حاتم وذكره عنه ابن كثير في تفسيره.

2- متفق عليه.

وروى الإمام أحمد بن حنبل بسنده أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي».

قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني.

قال «كن كابن آدم».[1]

وقال الإمام أحمد: حدثنا مرحوم حدثني أبوعمران الجوني عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، قال: ركب النبي ﷺ حماراً أردفني خلفه، وقال: «يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟» قال: قال الله ورسوله أعلم، قال: «تعفف» قال: «يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد، ويكون البيت فيه بالعبد، يعني القبر، كيف تصنع؟» قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: {اصبر} قال «يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً، يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال «اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك» قال: فإن لم أترك، قال «فأت من أنت منهم، فكن منهم» قال: فآخذ سلاحي، قال «فإذاً تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف، فألق طرف ردائك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك».[2]

وقوله ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي في قوله ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ أي بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك.

قاله ابن جرير: وقال آخرون: يعني بذلك إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي، وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشى أن يكون غلطاً لأن

1- وكذلك رواه الترمذي عن قتيبة بن سعيد وقال هذا الحديث حسن ورواه بعضهم عن الليث بن سعد وزاد في الإسناد رجلاً. انظر تفسير ابن كثير.

2- رواه مسلم في صحيحه وأهل السنن سوى النسائي من طرق عن أبي عمران الجوني عن عبدالله بن الصامت به ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق حماد بن زيد.

الصحيح من الرواية عنه خلافه، يعني ما رواه سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي﴾ قال: بقتلك إياي ﴿وَإِثْمِكَ﴾ قال: بما كان منك قبل ذلك.

وكذا رواه عيسى بن أبي نجيح، عن مجاهد بمثله، وروى شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يقول إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعاً.

قلت: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثاً لا أصل له ما ترك القاتل على المقتول من ذنب.[1]

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، ولكن ليس به، فقال: حدثنا عمرو ابن علي، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوب بن عبد الله، حدثنا عتبة ابن سعيد عن هشام بن عروة، عن أبيه عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ «قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه».

وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه فأما أن تحمل على القاتل فلا، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفدت ولم يستوف حقه، أخذ من سيئات المقتول، فطرحت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدها والله أعلم.[2]

وأضاف ابن كثير رحمه الله:

وأما ابن جرير فقال والصواب من القول في ذلك أن يقال إن تأويله إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوأَ بِإِثْمِي﴾ وأما معنى ﴿وَإِثْمِكَ﴾ فهو إثمه يعني قتله وذلك معصية الله عز وجل في أعمال سواه.

1- تفسير ابن كثير.

2- المصدر السابق.

وإنما قلنا ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه وإذا كان هذا حكمه في خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه دون ما ركبه قتيله.

هذا لفظه، ثم أورد على هذا سؤالاً حاصله كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه مع أن قتله له محرم، وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه.

قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجراً له لو انزجر، ولهذا قال ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ﴾ أي تتحمل إثمي وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وقال ابن عباس: خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله، أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر.

كيف قتل قابيل أخاه هابيل؟

قال السُّدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة بن عبد الله وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ فطلبه ليقتله، فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال، فأتاه يوماً من الأيام وهو يرعى غنماً له، وهو نائم فرفع صخرة، فشدخ بها رأسه فمات، فتركه بالعراء (رواه ابن جرير).

وعن بعض أهل الكتاب: أنه قتله خنقاً وعضًا، كما تقتل السباع، وقال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوي عنقه، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجراً آخر فضرب به رأسها حتى قتلها وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك (رواه ابن أبي حاتم).

وقال عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال: أخذ برأسه ليقتله، فاضطجع له، وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟

قال: نعم.

قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه.

قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه.

ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً فقال: يا حواء إن قابيل قتل هابيل.

فقالت له: ويحك وأي شيء يكون القتل؟

قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك.

قالت: ذلك الموت. قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: مالك؟ فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه.

فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، وأنا وبنيّ منها برآء (رواه ابن أبي حاتم).

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي في الدنيا والآخرة، وأي خسارة أعظم من هذه؟

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لا تُقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل». (متفق عليه)

وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود من طرق عن الأعمش به.

قال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه في الشمس حيثما دارت دار، عليه في الصيف حظيرة من نار وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج قال: وقال عبد الله بن عمرو: إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم (رواه الطبري)

عن ابن إسحاق عن حكيم بن حكيم أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم الذي قتل أخاه، ما سفك دم في الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل، وقال إبراهيم النخعي: ما من مقتول يقتل ظلماً، إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفل منه.[1]

1- رواه الطبري.

ماذا فعل قابيل بجثة أخيه بعد أن قتله؟

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 31] قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة: لما مات الغلام تركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حثى عليه، فلما رآه قال: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.

وقال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس، قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فحثى عليه من التراب حتى واراه، فقال الذي قتل أخاه ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾.[1]

وقال الضحاك عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه في جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ فدفن أخاه.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتاً لا يدري ما يصنع به، يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب، فقال ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ (رواه ابن جرير وابن أبي حاتم).

وقال عطية العوفي: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمي به فتأكله (رواه ابن جرير).

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: لما قتله سقط في يده أي ولم يدر كيف يواريه وذلك أنه كان فيها يزعمون أول قتيل في بني آدم، وأول ميت

1- تفسير ابن كثير.

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾. قال: وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل قال له الله عز وجل: يا قابيل أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً.

فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض الآن أنت ملعون في الأرض التي فتحت فاها فتلقت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعاً تائهاً في الأرض.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد خسران.

قال ابن كثير في التفسير: فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله «إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» وهذا ظاهر جلي، ولكن قال ابن جرير الطبري رحمه الله.

حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن هو البصري قال: كان الرجلان اللذان في القرآن اللذان قال الله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: 27] من بني إسرائيل ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان من بني إسرائيل وكان آدم أول من مات وهذا غريب جدًّا، وفي إسناده نظر.

وقد قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «إن ابني آدم عليه السلام ضربا لهذه الأمة مثلاً فخذوا بالخير منهما».

ورواه ابن المبارك عن عاصم الأحول عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً فخذوا من خيرهم ودعوا الشر».

وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المزني روى ذلك كله ابن جرير.

وقال سالم بن أبي الجعد: لما قتل ابن آدم أخاه مكث آدم مائة سنة حزيناً لا يضحك ثم أتى فقيل له: حياك الله وبياك أي أضحكك.

رواه ابن جرير ثم قال: حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن غياث بن إبراهيم عن أبي إسحاق الهمداني قال: قال على بن أبي طالب لما قتل ابن آدم أخاه بكاه آدم فقال:

تغيرت البلاد ومن عليها ... فلون الأرض مغبر قبيح

تغير كل ذي لون وطعم ... وقَلَّ بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم عليه السلام:

أبا هابيل قد قتلا جميعاً ... وصار الحي بالميت الذبيح

وجاء بشرّه قد كان منها ... على خوف فجاء بها يصيح

والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد وابن جبير أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ [أنه] قال: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم». وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.[1]

وقال ابن الأثير في الكامل في التاريخ عن قصة قابيل وهابيل بعد أن ذكر ميلاد قابيل في الجنة وميلاد هابيل بعد أن أهبط آدم وحواء على الأرض فقال:

وكانت حواء فيما يذكرون لا تحمل إلا توأمًا ذكرًا وأنثى فولدت حواء لآدم أربعين ولدًا لصلبه وأنثى في عشرين بطنًا وكان الولد منهم أي إخوته شاء تزوج إلا توأمته التي ولدت معه فإنها لا تحل له، وذلك أنه لم يكن يومئذ نساء إلا أخواتهم وأمهم حواء، فأمر آدم ابنه قابيل أن ينكح توأمة هابيل وأمر هابيل أن ينكح أخت أخيه قابيل.

وقيل: بل كان آدم غائبًا وكان لما أراد السير قال للسماء:

احفظي ولدي بالأمانة، فأبت، وقال للأرض فأبت، وللجبال فأبت، وقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وستجد كما يسرك فانطلق آدم فكان ما نذكره، وفيه قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا

1- تفسير ابن كثير.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]. فلما قال آدم لقابيل وهابيل في معنى نكاح أختيهما ما قال لهما سلم هابيل لذلك ورضي به، وأبى ذلك قابيل وكرهه تكرها عن أخت هابيل ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض فأنا أحق بأختي.

وقال بعض أهل العلم: إن أخت قابيل كانت من أحسن الناس فضن بها على أخيه، وأرادها لنفسه، وإنهما لم يكونا من ولادة الجنة إنما كانا من ولادة الأرض، والله أعلم، فقال له أبوه آدم: يا بني، إنها لا تحل لك، فأبى أن يقبل ذلك من أبيه. فقال له أبوه: يا بني، فقرب قربانا، ويقرب أخوك هابيل قربانا، فأيكما قبل الله قربانه فهو أحق بها.

وكان قابيل على بذر الأرض وهابيل على رعاية الماشية، فقرب قابيل قمحا، وقرب هابيل أبكار غنمه. وقيل: قرب بقرة، فأرسل الله نارا بيضاء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل.

وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله الله، فلما قبل الله قربان هابيل، وكان في ذلك القضاء له بأخت قابيل، غضب قابيل، وغلب عليه الكبر، واستحوذ عليه الشيطان، وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي. قال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ إلى قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فاتبعه وهو في ماشيته ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾، فهما اللذان قص الله خبرهما في القرآن، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ﴾ إلى آخر القصة في سورة المائدة.

قال: فلما قتله سقط في يده ولم يدر كيف يواريه، وذلك أنه كان فيما يزعمون أول قتيل من بني آدم، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 32] إلى قوله: ﴿لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 31].

فلما قتل أخاه قال الله تعالى: يا قابيل، أين أخوك هابيل؟

قال: لا أدري، ما كنت عليه رقيبا! فقال الله تعالى: إن صوت دم أخيك يناديني من الأرض الآن، أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاها فبلعت دم أخيك، فإذا أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعا تائها في الأرض. فقال قابيل: عظمت خطيئتي إن لم تغفرها.

آدم وذريته عند علماء أهل الفرس

قال ابن الأثير في الكامل:

وقد زعم أكثر علماء الفرس أن جيومرث هو آدم، وزعم بعضهم أنه ابن آدم لصلبه من حواء، وقالوا فيه أقوالا كثيرة يطول بذكرها الكتاب إذ كان قصدنا ذكر الملوك وأيامهم، ولم يكن ذكر الاختلاف في نسب ملك من جنس ما أنشأنا له الكتاب، فإن ذكرنا من ذلك شيئا فلتعريف من ذكرنا ليعرفه من لم يكن عارفا به.

وقد خالف علماء الفرس فيما قالوا من ذلك آخرون من غيرهم ممن زعم أنه آدم، ووافق علماء الفرس على اسمه، وخالفهم في عينه وصفته، فزعم أن جيومرث الذي زعمت الفرس أنه آدم، إنما هو حام بن يافث بن نوح، وأنه كان معمرا سيدا نزل جبل دنباوند من جبال طبرستان من أرض المشرق، وتملك بها وبفارس، وعظم أمره وأمر ولده حتى ملكوا بابل، وملكوا في بعض الأوقات الأقاليم كلها، وابتنى جيومرث المدن، والحصون، وأعد السلاح، واتخذ الخيل، وتجبر في آخر أمره، وتسمى بآدم، وقال: من سماني بغيره قتلته، وتزوج ثلاثين امرأة، فكثر منهن نسله، وأنماري ابنه وماريانة أخته ممن كانا ولدا في آخر عمره، فأعجب بهما وقدمهما، فصار الملوك من نسلهما.

قال أبو جعفر: وإنما ذكرت من أمر جيومرث في هذا الموضع ما ذكرت لأنه لا تدافع بين علماء الأمم أنه أبو الفرس من العجم، وإنما اختلفوا فيه هل هو آدم أبو البشر، أم غيره على ما ذكرنا؟ ومع ذلك فلأن ملكه وملك أولاده لم يزل منتظما على سياق متصل بأرض المشرق وجبالها إلى أن قتل يزدجرد بن شهريار بمرو أيام عثمان بن عفان، والتاريخ على أسماء ملوكهم أسهل بيانا، وأقرب إلى التحقيق منه على أعمار ملوك غيرهم من الأمم، إذ لا يعلم أمة من الأمم الذين ينتسبون إلى آدم دامت لهم المملكة واتصل الملك لملوكهم يأخذه آخرهم عن أولهم، وغابرهم عن سالفهم سواهم.

وأنا ذاكر ما انتهى إلينا من القول في عمر آدم، وأعمار من بعده من ولده من الملوك، والأنبياء، وجيومرث أبي الفرس، فأذكر ما اختلفوا فيه من أمرهم إلى الحال التي اجتمعوا عليها، واتفقوا على ملك منهم في زمان بعينه أنه هو الملك في ذلك الزمان إن شاء الله.

وكان آدم مع ما أعطاه الله تعالى من ملك الأرض نبيًّا رسولًا إلى ولده، وأنزل الله عليه إحدى وعشرين صحيفة كتبها آدم بيده علمه إياها جبرائيل. وروى أبو ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قال: قلت: يا رسول الله كم الرسل من ذلك؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا، يعني كثيرا، طيبا قال: قلت: من أولهم؟ قال: آدم. قال: قلت: يا رسول الله، وهو نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلا، وكان ممن أنزل عليه تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وحروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة.

وأضاف ابن الأثير:

ومن الأحداث في أيامه ولادة شيث، وكانت ولادته بعد مضيّ مائة وعشرين سنة لآدم، وبعد قتل هابيل بخمس سنين، وقيل: ولد فرداً بغير توأم، وتفسير شيث هبة الله، ومعناه أنه خلف من هابيل، وهو وصيّ آدم، وقال ابن عباس: كان معه توأم، ولما حضرت آدم الوفاة عهد إلى شيث وعلّمه ساعات الليل والنهار وعبادة الخلوة في كل ساعة منها وأعلمه بالطوفان، وصارت الرياسة بعد آدم إليه، وأنزل الله عليه خمسين صحيفة، وإليه أنساب بني آدم كلّهم اليوم.

وأما الفرس الذين قالوا إن جيومرث هو آدم، فإنهم قالوا: ولد لجيومرث ابنته ميشان أخت ميشى، وتزوج ميشى أخته ميشان فولدت له سيامك وسيامي، فولد لسيامك بن جيومرث افروال ودقس وبواسب واجرب واوراش، وأمهم جميعاً سيامي ابنة ميشي، وهي أخت أبيهم؟

وذكروا أن الأرض كلها سبعة أقاليم، فأرض باب وما يوصل إليه مما يأتيه الناس برًّا وبحراً فهو من إقليم واحد وسكانُه ولد افروال بن سيامك وأعقابهم، فولد

لافروال بن سيامك من افرى ابنة سيامك أو شهنج بيشداد الملك، وهو الذي خلف جدّه جيومرث في الملك، وهو أول من جمع ملك الأقاليم السبعة، وسنذكر أخباره.

وكان بعضهم يزعم أن اوشهنج هذا هو ابن آدم لصلبه من حواء.

وأما ابن الكلبي فإنه زعم أن أول من ملك الأرض أوشهنق بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح.

قال: والفرس تزعم أنه كان بعد آدم بمائتي سنة، وإنما كان بعد نوح بمائتي سنة، ولم تعرف الفرس ما كان قبل نوح.

والذي ذكره هشام بن الكلبيّ لا وجه له، لا أن أوشهنج مشهور عند الفرس، وكل قوم أعلم بأنسابهم وأيامهم من غيرهم، قال: وقد زعم بعض نسّابة الفرس أن أوشهنج هذا هو مهلائيل، وأنّ أباه أفروال هو قينان، وأنّ سيامك هو أنوش أبو قينان، وأن ميشي هو شيث أبو أنوش، وأنّ جيومرث هو آدم، فإن كان الأمر كما زعم فلا شكّ أن أوشهنج كان في زمن آدم رجلاً، وذلك لأنّ مهلائيل فيما ذكر في الكتب الأولى كانت ولادة أمّه دينة ابنة براكيل بن محويل بن حنوخ بن قين بن آدم وأتاه بعدما مضى من عمر آدم ثلاثمائة سنة وخمس وتسعون سنة، وقد كان له حين وفاة أبيه آدم ستمائة سنة وخمس وستون سنة على حساب أن عمر آدم كان ألف سنة، وقد زعمت الفرس أن ملك أوشهنج كان أربعين سنة، فإن كان الأمر على ما ذكره النسّابة الذي ذكرت عنه ما ذكرت فيما يبعد من قال: إن ملكه كان بعد وفاة آدم بمائتي سنة.

وفاة آدم ووصيته لابنه شيث تجاه أخيه قابيل

ذكر أن آدم مرض أحد عشر يوماً وأوصى إلى ابنه شيث وأمره أن يخفي علمه عن قابيل وولده لأنه قتل هابيل حسداً منه له حين خصّه آدم بالعلم، فأخفى شيث وولده ما عندهم من العلم، ولم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به. (1)

وقد روى أبو هريرة عن النبي، ﷺ، أنه قال: «قال الله تعالى لآدم حين خلقه: ائتِ أولئك النفر من الملائكة قل السلام عليكم، فأتاهم فسلّم عليهم، وقالوا له: عليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربّه فقال له: هذه تحيّتك وتحية ذريتك بينهم، ثم قبض له يديه فقال له: خذ واختر.

فقال: أحببت يمين ربي وكلتا يديه يمين، ففتحها له فإذا فيها صورة آدم وذريته كلهم، وإذا كل رجل منهم مكتوب عنده أجله، وإذا آدم قد كتب له عمر ألف سنة، وإذا قوم عليهم النور.

فقال: يا رب من هؤلاء الذين عليهم النور؟

فقال: هؤلاء الأنبياء والرسل الذين أرسلهم إلى عبادي، وإذا فيهم رجل هو من أضوئهم نوراً ولم يكتب له من العمر إلا أربعون سنة، فقال آدم: يا ربّ هذا من أضوئهم نوراً ولم تكتب له إلا أربعين سنة، بعد أن أعلمه أنه داود، عليه السلام.

فقال: ذلك ما كتبت له، فقال: يا ربّ انقص له من عمري ستين سنة. فقال رسول الله، ﷺ، فلما أهبط إلى الأرض كان يعدّ أيّامه، فلما أتاه ملك الموت لقبضه قال له آدم: عجلت يا ملك الموت قد بقي من عمري ستون سنة.

1- الكامل في التاريخ لابن الأثير.

فقال له ملك الموت: ما بقي شيء، سألت ربّك أن يكتبه لابنك داوود.

فقال آدم: ما فعلت

فقال النبي ﷺ: فنسي آدم ونسيت ذريته، وجحد وجحدت ذريته، فحينئذ وضع الله الكتاب وأمر الشهود». [1]

1- الكامل في التاريخ لابن الأثير.

ذكر قصة هابيل وقابيل في تفسير القرطبي

قال القرطبي رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

فيه مسألتان: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ...﴾ الآية. وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود، ونقضهم المواثيق والعهود كظلم ابن آدم لأخيه. والمعنى: إن هَمَّ هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء، وقتل قابيل هابيل، والشر قديم. أي: ذكرهم هذه القصة فهي قصة صدق، لا كالأحاديث الموضوعة؛ وفي ذلك تبكيت لمن خالف الإسلام، وتسلية للنبي ﷺ.

واختلف في ابني آدم؛ فقال الحسن البصري: ليسا لصلبه، كانا رجلين من بني إسرائيل - ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة، فتقربا بقربانين ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل.

قال ابن عطية: وهذا وهم، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح أنهما ابناه لصلبه.

وهذا قول الجمهور من المفسرين وقاله ابن عباس وابن عمر وغيرهما؛ وهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل - لأنه كان صاحب زرع - واختارها من أردأ زرعه، ثم إنه وجد فيها سنبلة طيبة ففركها وأكلها، وكان قربان هابيل كبشا - لأنه كان صاحب غنم - أخذه من أجود غنمه. فتقبل فرفع إلى الجنة، فلم يزل يرعى فيها إلى أن فدي به الذبيح عليه السلام. (قاله سعيد بن جبير وغيره).

فلما تقبل قربان هابيل لأنه كان مؤمنا - قال له قابيل حسدا: - لأنه كان كافرا -

أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني! لأقتلنك وقيل: سبب هذا القربان أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى - إلا شيثا عليه السلام فإنها ولدته منفردا عوضا من هابيل على ما يأتي، واسمه هبة الله؛ لأن جبريل عليه السلام قال لحواء لما ولدته: هذا هبة الله لك بدل هابيل، وكان آدم يوم ولد شيث ابن ثلاثين ومائة سنة - وكان يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته توأمته؛ فولدت مع قابيل أختا جميلة واسمها إقليمياء، ومع هابيل أختا ليست كذلك واسمها ليوذا؛ فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر؛ فاتفقوا على التقريب؛ قاله جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود.

وروي أن آدم حضر ذلك، والله أعلم.

وقد روي في هذا الباب عن جعفر الصادق: أن آدم لم يكن يزوج ابنته من ابنه؛ ولو فعل ذلك آدم لما رغب عنه النبي ﷺ، ولا كان دين آدم إلا دين النبي ﷺ، وأن الله تعالى لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حواء بنتا فسماها عناقا فبغت، وهي أول من بغى على وجه الأرض؛ فسلط الله عليها من قتلها، ثم ولدت لآدم قابيل، ثم ولدت له هابيل؛ فلما أدرك قابيل أظهر الله له جنية من ولد الجن، يقال لها: جمالة في صورة إنسية.

وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه. فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حورية في صفة إنسية وخلق لها رحما، وكان اسمها بزلة، فلما نظر إليها هابيل أحبها؛ فأوحى الله إلى آدم أن زوج بزلة من هابيل ففعل.

فقال قابيل: يا أبتِ ألست أكبر من أخي؟ قال: نعم. قال: فكنت أحق بما فعلت به منه! فقال له آدم: يا بني إن الله قد أمرني بذلك، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فقال: لا والله، ولكنك آثرته علي.

فقال آدم: «فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بالفضل».

قلت: هذه القصة عن جعفر ما أظنها تصح، وأن القول ما ذكرناه من أنه كان

يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن، والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1]، وهذا كالنص ثم نسخ ذلك.

وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنا؛ أولهم قابيل وتوأمته إقليمياء، وآخرهم عبد المغيث. ثم بارك الله في نسل آدم. قال ابن عباس: لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا، وما روي عن جعفر - من قوله: فولدت بنتا وأنها بغت - فيقال: مع من بغت؟ أمع جني تسول لها! ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر، وذلك معدوم، والله أعلم.

الثانية: وفي قول هابيل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27] «كلام قبله محذوف؛ لأنه لما قال له قابيل: لأقتلنك قال له: ولم تقتلني وأنا لم أجن شيئا؟، ولا ذنب لي في قبول الله قرباني، أما إني اتقيته وكنت على لاحب الحق وإنما يتقبل الله من المتقين.

قال ابن عطية: المراد بالتقوى هنا اتقاء الشرك بإجماع أهل السنة؛ فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التي تصدق فيها نيته مقبولة؛ وأما المتقي الشرك والمعاصي فله الدرجة العليا من القبول والختم بالرحمة؛ علم ذلك بإخبار الله تعالى لا أن ذلك يجب على الله تعالى عقلا، وقال عدي بن ثابت وغيره: قربان متقي هذه الأمة الصلاة.

قلت: وهذا خاص في نوع من العبادات.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».(1)

1- تفسير القرطبي.

سبب النزاع بين قابيل وأخيه هابيل

ذكر أهل التفاسير والتواريخ أن منشأ الصراع والنزاع بين الأخوين قابيل وهابيل الذي دعا آدم أن يأمرهما أن يقرب كل واحد منهما قربانا به إلى الله عز وجل هو أمران:

الأول: قالوا إن آدم عليه السلام قد أمره الله عز وجل أن يزوج الأنثى التي ولدت مع قابيل إلى هابيل وأن يزوج الأنثى التي ولدت مع هابيل إلى قابيل، وأن توأمة هابيل كانت أقل جمالًا من توأمة قابيل، وذكر البعض أن قابيل وتوأمته ولدا في الجنة وأن هابيل وتوأمته ولدا على الأرض بعد الهبوط من الجنة.

ولهذا السبب رفض قابيل أن يتزوج بتوأمة أخيه هابيل لأنها أقل جمالًا من أخته وأصر على أن يتزوج بأخته التوأم التي ولدت معه، ومع إصراره أمرهما آدم (الأب) أن يقدما قربانًا، فقدم هابيل أفضل ما لديه من الماشية وكان يعمل بالرعي وقدم قابيل أسوأ ما لديه من زرع حيث كان يعمل بالزراعة وفلاحة الأرض، وذبح هابيل الماشية وكانت أفضل ما عنده وقدم قابيل قربانه من المحاصيل، فأكلت النار التي نزلت من السماء قربان هابيل دليلًا على قبول الله عز وجل قربانه ولم تأكل قربان قابيل دليلًا على رفضه قربانه.

والقول الثاني: أن سبب الخلاف أن الله أوحى إلى آدم عليه السلام أن يجعل هابيل وصيًّا له وأن يتحمل تبعات النبوة من بعده وأن يمنحه العلم الذي تعلمه، وحين علم بذلك قابيل استشاط غيظًا وحقدًا وحسدًا على أخيه هابيل، وأراد أن يكون هو من له ميراث النبوة عن أبيه بوصفه الأخ الأكبر لكن أباه آدم عليه السلام أخبره أن هذا الأمر من الله عز وجل، وليس عن أمره هو، وأراد أن يبرهن له ذلك فأمره وأخاه أن يقرب كل منهما قربانًا لله تعالى، فمن أحرقت النار قربانه فهو الأحق عند الله عز وجل، ولكن قابيل حين رأى أن النار أكلت قربان أخيه هابيل اشتد ضيقه عليه وحسده ثم هدده بالقتل ثم بغى عليه فقتله كما ذكرت ذلك آيات سورة المائدة.

ومن ميراث النبوة والعلم الذي علمه الله لآدم اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به أجابه وإذا سأله أعطاه.

وذكروا أن إبليس جاء إلى قابيل وأخبره أنه إذا قتل أخاه هابيل لن يتبقى سواه وبالتالي فسوف يدفع آدم عليه السلام إليه بما تعلمه من الأسماء والعلوم الربانية والنبوة ثم سولت له نفسه قتل أخيه حسدًا فقتله.

وقد رفض علماء الشيعة الإمامية أن يكون آدم عليه السلام كان يزوج أولاده من بعضهم البعض وبالتالي رفضوا القول بأن أمر هابيل بالزواج من توأمة أخيه قابيل والعكس واعتبروا أن ذلك من زنا المحارم وقالوا إن هذا من كلام العامة ولا يصح، وذكروا روايات رواها العياشي عن سليمان بن خالد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك أن الناس يزعمون أن آدم عليه السلام زوج ابنته من ابنه، فقال أبو عبدالله عليه السلام: من قال الناس ذلك ولكن يا سليمان أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: لو علمت أن آدم عليه السلام زوج ابنته من ابنه لزوجت زينب من القاسم وما كنت لأرغب عن دين آدم عليه السلام.

فقلت: جعلت فداك أنهم يزعمون أن قابيل إنما قتل هابيل إلا أنهما تغايرا على أختهما، فقال: يا سليمان تقول هذا؟! أما تستحي أن تروي هذا على نبي الله آدم عليه السلام، فقلت: جعلت فداك ففيم قتل قابيل هابيل: فقال: في الوصية.[1]

ومما قالوه واحتجوا به أن دين آدم هو دين محمد ﷺ؛ وقد رد عليهم أهل العلم من أهل السنة والجماعة أن ما أمر به آدم عليه السلام كان بوحي من الله وشرع منه وأن الله تعالى قد أحل أشياء لأقوام وحرم على آخرين وأن الشريعة التي أنزلت على خاتم الرسل والأنبياء ﷺ هي الخاتمة وسوف نفصل هذا الأمر فيما بعد حين نتكلم عن شبهات حول آدم وحواء إن شاء الله تعالى في الصفحات القادمة، فالذي يحدد الحرام والحلال هو الله عز وجل.

1- تفسير العياشي وهو من تفاسير الشيعة الإمامية.

بنو إسرائيل وقصة قابيل وهابيل

بعد ذكر قصة ابني آدم عليه السلام جاء قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32]

جاء قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ذهب البعض للقول أن ابني آدم المذكورين في الآيات هما من بني إسرائيل قال بذلك الحسن البصري ولكن هذا القول رده غالبية أهل العلم والمؤرخون والمفسرون.

قال الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية قوله من أجل ذلك أي بسبب فعلته أي من أجل ما مر من قصة قابيل وهابيل كتبنا على بني إسرائيل القصاص وذاك مشكل فإنه لا مناسبة بين واقعة قابيل وهابيل وبين وجوب القصاص من بني إسرائيل وأن وجوب القصاص حكم ثابت في جميع الأمم، فما فائدة تخصيصه ببني إسرائيل؟ والجواب عن وجهين أحدهما قال الحسن البصري: وهذا القتل إنما وقع في بني إسرائيل لا بين ولدي آدم من صلبه.

والثاني: أنا نسلم أن هذا القتل وقع بين ولدي آدم من صلبه، ولكن قوله ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ ليس إشارة إلى قصة قابيل وهابيل، بل هو إشارة إلى ما مر ذكره في هذه القصة من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام، منها قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ومنها قوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾، فقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إشارة إلى أنه حصلت له خسارة الدين والدنيا، وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ إشارة إلى أنه حصل من قلبه أنواع الندم والحسرة والحزن مع أنه لا دفع له البتة، فقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي من أجل ذلك الذي ذكرنا في أثناء القصة من أنواع

المفاسد المتولدة من القتل العمد العدوان شرعنا القصاص في حق القاتل، وهذا جواب حسن، والله أعلم.

وأما السؤال الثاني: والجواب عنه أن وجوب القصاص في حق القاتل وإن كان عاما في جميع الأديان والملل، إلا أن التشديد المذكور ههنا في حق بني إسرائيل غير ثابت في جميع الأديان؛ لأنه تعالى حكم ههنا بأن قتل النفس الواحدة جار مجرى قتل جميع الناس، ولا شك في أن المقصود منه المبالغة في شرح عقاب القتل العمد العدوان، والمقصود من شرح هذه المبالغة أن اليهود مع علمهم بهذه المبالغة العظيمة أقدموا على قتل الأنبياء والرسل. وذلك يدل على غاية قساوة قلوبهم ونهاية بعدهم عن طاعة الله تعالى، ولما كان الغرض من ذكر هذه القصص تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام في الواقعة التي ذكرنا أنهم عزموا على الفتك برسول الله ﷺ وبأكابر أصحابه، كان تخصيص بني إسرائيل في هذه القصة بهذه المبالغة العظيمة مناسبا للكلام ومؤكدا للمقصود.

قال القائلون بالقياس: دلت الآية على أن أحكام الله تعالى قد تكون معلَّلة بالعلل، وذلك لأنه تعالى قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كذا وكذا، وهذا تصريح بأن كتبه تلك الأحكام معلَّلة بتلك المعاني المشار إليها بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ والمعتزلة أيضا قالوا: دلت هذه الآية على أن أحكام الله تعالى معللة بمصالح العباد، ومتى ثبت ذلك امتنع كونه تعالى خالقا للكفر والقبائح فيهم مريدا وقوعها منهم؛ لأن خلق القبائح وإرادتها تمنع من كونه تعالى مراعيا للمصالح، وذلك يبطل التعليل المذكور في هذه الآية.

قال أصحابنا: القول بتعليل أحكام الله تعالى محال لوجوه:

أحدها: أن العلة إن كانت قديمة لزم قدم المعلول، وإن كانت محدثة وجب تعليلها بعلة أخرى ولزم التسلسل.

وثانيها: لو كان معللا بعلة فوجود تلك العلة وعدمها بالنسبة إلى الله تعالى إن كان على السوية امتنع كونه علة، وإن لم يكن على السوية فأحدهما به أولى، وذلك

يقتضي كونه مستفيدا تلك الأولوية من ذلك الفعل، فيكون ناقصا لذاته مستكملا بغيره وهو محال.

وثالثها: أنه قد ثبت توقف الفعل على الدواعي، ويمتنع وقوع التسلسل في الدواعي، بل يجب انتهاؤها إلى الداعية الأولى التي حدثت في العبد لا من العبد بل من الله، وثبت أن عند حدوث الداعية يجب الفعل، وعلى هذا التقدير فالكل من الله، وهذا يمنع من تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه، فثبت أن ظاهر هذه الآية من المتشابهات لا من المحكمات، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[المائدة: 17] وذلك نص صريح في أنه يحسن من الله كل شيء ولا يتوقف خلقه وحكمه على رعاية المصالح.

قوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال الزجاج: إنه معطوف على قوله: ﴿نَفْسٍ﴾ والتقدير من قتل نفسا بغير نفس أو بغير فساد في الأرض، وإنما قال تعالى ذلك لأن القتل يحل لأسباب كثيرة، منها القصاص وهو المراد بقوله ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومنها الكفر مع الحراب، ومنها الكفر بعد الإيمان، ومنها قطع الطريق وهو المراد بقوله تعالى بعد هذه الآية ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] فجمع تعالى كل هذه الوجوه في قوله: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وفيه إشكال. وهو أن قتل النفس الواحدة كيف يكون مساويا لقتل جميع الناس، فإن من الممتنع أن يكون الجزء مساويا للكل، وذكر المفسرون بسبب هذا السؤال وجوها من الجواب، وهي بأسرها مبنية على مقدمة واحدة، وهي أن تشبيه أحد الشيئين بالآخر لا يقتضي الحكم بمشابهتهما من كل الوجوه؛ لأن قولنا: هذا يشبه ذاك أعم من قولنا: إنه يشبهه من كل الوجوه، أو من بعض الوجوه، وإذا ظهرت صحة هذه المقدمة فنقول: الجواب من وجوه:

الأول: المقصود من تشبيه قَتل النفس الواحدة بقتل النفوس المبالغة في تعظيم أمر القتل العمد العدوان وتفخيم شأنه، يعني كما أن قتل كل الخلق أمر مستعظم عند كل

أحد، فكذلك يجب أن يكون قتل الإنسان الواحد مستعظما مهيبا فالمقصود مشاركتهما في الاستعظام، لا بيان مشاركتهما في مقدار الاستعظام، وكيف لا يكون مستعظما وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 93] .

الوجه الثاني في الجواب: هو أن جميع الناس لو علموا من إنسان واحد أنه يقصد قتلهم بأجمعهم فلا شك أنهم يدفعونه دفعا لا يمكنه تحصيل مقصوده، فكذلك إذا علموا منه أنه يقصد قتل إنسان واحد معين يجب أن يكون جدهم واجتهادهم في منعه عن قتل ذلك الإنسان مثل جدهم واجتهادهم في الصورة الأولى.

الوجه الثالث في الجواب: وهو أنه لما أقدم على القتل العمد العدوان فقد رجح داعية الشهوة والغضب على داعية الطاعة، ومتى كان الأمر كذلك كان هذا الترجيح حاصلا بالنسبة إلى كل واحد، فكان في قلبه أن كل أحد نازعه في شيء من مطالبه فإنه لو قدر عليه لقتله، ونية المؤمن في الخيرات خير من عمله، فكذلك نية المؤمن في الشرور شر من عمله، فيصير المعنى: ومن يقتل إنسانا قتلا عمدا عدوانا فكأنما قتل جميع الناس، وهذه الأجوبة الثلاثة حسنة.

قوله ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ المراد من إحياء النفس تخليصها عن المهلكات مثل الحرق والغرق والجوع المفرط والبرد والحر المفرطين، والكلام في أن إحياء النفس الواحدة مثل إحياء النفوس على قياس ما قررناه في أن قتل النفس الواحدة مثل قتل النفوس.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾.

والمعنى أن كثيرا من اليهود بعد ذلك، أي بعد مجيء الرسل، وبعد ما كتبنا عليهم تحريم القتل لمسرفون، يعني في القتل لا يبالون بعظمته.

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية: «يقول تعالى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلمًا

وعدوانًا ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي لهم وأعلمناهم ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي من قتل نفسًا بغير نفس من قصاص أو فساد في الأرض واستحل قتلها بلا سبب أو جناية فكأنما قتل الناس جميعًا لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس.

قال القرطبي في تفسيره: قال الضحاك: من قوله ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.. يقول: من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلمًا.

قال القرطبي في تفسيره للآية: وخص بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمته أمم قبلهم كان قتل النفس فيهم محظورًا لأنهم أول أمة نزل الوعيد عليهم من قتل الأنفس مكتوبًا وكان قبل ذلك قولًا مطلقًا فغلظ الأمر على بني إسرائيل بالكتاب بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء.

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله في تفسيره للآية: نجد الحق قال: إنه كتب على بني إسرائيل ما جاء بهذه الآية من قانون واضح لأن معنى كلمة أجل هو بسبب، ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ من أجل شر عليهم يأجله أي جنى جناية، أي من جريمته ذلك.

أو من هذه الجناية شرعنا هذا التشريع: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ إذن فساعة تسمع من أجل فاعرف أنها تعني «بسبب ذلك» أو «بوقوع ذلك» أو بجريرة ذلك أو بهذه الجناية كان ذلك.

ولكن هل هذا الكتاب خاص ببني إسرائيل؟

بعض العلماء قال: أن ابني آدم ليسا ابني آدم مباشرة، ولكنهما من ذرية آدم وهما من بني إسرائيل، ونرد: من هو إسرائيل أولًا الذي نسب إليه أبناء إسرائيل؟

إنه يعقوب بن إسحاق؛ بن إبراهيم، وإبراهيم يصل إلى نوح بأحد عشر أباً ويصل نوح إلى شيث، وبعد ذلك إلى آدم؛ فهل كانت كل هذه السلسلة لا تعرف كيف تدفن الميت إلى أن جاء بنو إسرائيل؟

طبعاً لا؛ ومادام الحق أوضح أنه سبحانه قد بعث غُراباً يبحث في الأرض ليُرِيَه كيف

يُواري سَوْءَة أخيه، فهذا دليل على أن هابيل هو أول إنسان تَمَّ دفنه، ومن غير المقبول -إذن- أن نقول: إن الإنسان لم يعرف كيف يواري جثمان الميّت إلى أن وصلت البشرية إلى زمن بني إسرائيل، وأنهم هم الذين علموا البشرية ذلك!

ولماذا جاء الحق هنا ببني إسرائيل؟. سبب ذلك أن بني إسرائيل اجترأوا لا على قتل النفس فقط بل اجترأوا على قتل النفس الهادية، وهي النفس التي تحمل رسالة النّبوة، ولذلك كان التخصيص، فقد قتلوا أنبياءهم الذين حملوا لهم المنهج التطبيقي؛ لأن الأنبياء يأتون كنماذج تطبيقية للمناهج حتى يلفِتوا الناس إلى حقيقة تطبيق منهج الله. الأنبياء -إذن- لا يأتون بشرع جديد، ولكنهم يسيرون على شرع من قبلهم. فلماذا قتل بنو إسرائيل بعضاً من الأنبياء؟ لقد تولّدت لدى بني إسرائيل حفيظة ضد هؤلاء الأنبياء.

ونعلم أن الإنسان الخيّر حين يصنع الخير ويراه الشرّير الذي لا يقدر على صناعة الخير فتتولد في نفس الشرّير حفيظة وحقد وغضب على فاعل الخير. ففاعل الخير كلما فعل خيراً إنما يلدغ الشرّير، ولذلك يحاول الشرّير أن يُزيح فاعل الخير من أمامه. وكان الأنبياء هم القدوة السلوكية، وقد قال الحق عن بني إسرائيل: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 91].

وجاء الحق هنا بـ ﴿مِن قَبْلُ﴾ هذه لحكمة؛ لأن رسول الله ﷺ كان في عداءٍ مع اليهود، وقد تَهبّ عليهم الخواطر الشرّيرة فيحاولون قتل النّبي ﷺ.

وقد حاولوا ذلك. مثلما أرادوا أن يلقوا عليه حجراً، ودسُّوا له السّم، ولذلك قال الله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي إن قدرتكم على قتل الأنبياء كانت في الماضي؛ أما مع محمد المصطفى فلن تُمكَّنُوا منه.

ويقول سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وهذا توضيح لإرادة الحق في تأسيس الوحدة الإيمانية ليجعل من المجتمع الإيماني رابطة يوضحها قول رسول الله ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري عنه: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً).

وإياك أن تنظر إلى مجترئ على غيرك، بالباطل، وتقف مكتوف اليدين؛ لأن الوحدة الإيمانية تجعل المؤمنين جميعاً كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسّهر والحُمى. فإن قَتل إنسان إنساناً آخر ووقف المجتمع الإيماني موقف العاجز. فهذا إفسادٌ في الأرض، ولذلك يجب أن يقابل المجتمع مثل هذا الفعل لا على أساس أنه قتل نفسا واحدة، بل كأنه قتلٌ للناس جميعاً ما لم يكن قتل النفس لقصاص أو إفساد في الأرض.

ويكمل الحق سبحانه الشق الثاني من تلك القضية الإيمانية: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، وهذه هي الوحدة الإيمانية، فمن يعتدي على نفس واحدة بريئة، كمن يعتدي على كل الناس، والذي يسعف إنساناً من مهلَكة كأنه أنقذ الناس جميعاً.

وفي التوقيع التكليفي يكون التطبيق العملي لتلك القاعدة، فالذي يقتل بريئاً عليه لعنة الله وغضبه ويعذبه الله، وكأنه قتل الناس أجمعين، وإن نظرنا إليها من ناحية الجزاء فالجزاء واحد.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وسبحانه وتعالى يريد ألا يستقبل المجتمع الإيماني مجترئاً بباطل على حق إلا أن يقف كل المجتمع أمامه، فلا يقف المعتدَى عليه بمفرده؛ لأن الذي يُجرِّئ أصحاب الشرّ هو أن يقول بعض الناس كلمة (وأنا مَالِي).

و(الأنا ماليه) هي التي تُجرِّئ أصحاب الشرور، ولذلك اقرأوا قصة الثيران الثلاثة: الثور الأسود والثور الأحمر والثور الأبيض، فقد احتال أسد على الثورين الأحمر والأسود، فسمحا له بأكل الثور الأبيض. واحتال على الثور الأسود فسمح الثور الأسود للأسد بأكل الثور الأحمر؛ وجاء الدور على الثور الأسود؛ فقال للأسد:

- أُكلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض. كأن الثور التفت إلى أن (أنا ماليه) جعلته ينال مصرعه. لكن لو كان الثيران الثلاثة اجتمعوا على الأسد لقتلوه.

وها هو ذا الحديث النبوي الشريف الذي يمثل القائم على حدود الله والواقع فيها:

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ونجوا جميعاً».

كذلك مثل القائم على حدود الله ومثل الواقع فيها، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لنا: لا تنظر إلى أن نفساً قتلت نفساً بغير حق، ولكن انظر إليها كأن القاتل قتل الناس جميعاً؛ لأن الناس جميعاً متساوون في حق الحياة. ومادام القاتل قد اجترأ على واحد فمن الممكن أن يَجترئ على الباقين.

أو أن يكون فعله أُسْوَة لغيره، ومادام قد اسْتَن مثل هذه السُّنة، سنجد كل من يغضب من آخر يقتله، وتظل السلسلة من القتلة والقتلى تتوالى.

والحديث النبوي يقول: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

إنه الاحتياط والدقة والقيد: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. فكأن من قتل نفساً بنفس أو بفساد في الأرض، لا يقال عليه: إنه قتل الناس جميعاً، لأن التجريم لأي فعل يعني مجيء النص الموضح أن هذا الفعل جريمة، وبعد ذلك نضع لهذه الجريمة عقوبة. ولا يمكن أن تأتي لواحد ارتكب فعلاً وتقول له: أنا أؤاخذك به وأُعاقبك عليه بغير أن يوجَد نص بتجريم هذا الفعل.

وهناك توجد قاعدة شرعية قانونية تقول: (لا تجريم إلاّ بنص ولا عُقوبة إلاّ بتجريم). أي أننا نُرتّب العقوبة على الجريمة، أو ساعة يُجرّم فعل يُذكر بجانب التجريم العقوبة، فلعلَّ القصد هو عقاب مُرتكب الجُرم. لا إنما القصد هو تفظيع العقاب حتى يراه كل إنسان قبل أن يرتكب الجريمة، والهدف هو منع الجريمة، ولذلك تجد الحكمة البشرية القائلة: (القتل أنفى للقتل)، وبطبيعة الحال لا يمكن أن ترقى تلك الحكمة إلى قول الحق: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

لأننا يمكن أن نتساءل: أيّ قتل أنفى للقتل؟. وسنجد أن المقصود بالحكمة ليس القتل الابتدائي ولكن قتل الاقتصاص. وهكذا نجد الأسلوب البشري قد فاتته اللمحة الفعَّالة في منع القتل الموجودة في قوله الحق: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وكلمة ﴿أَحْيَاهَا﴾ لها أكثر من معنى. وبالتحديد لها معنيان:

المعنى الأول: أنه أبقى فيها الروح التي تحرك المادة.

والمعنى الثاني: إحياء الروح الإيمانية، مصداقاً لقول الحق تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولنا أن نلتفت إلى أن الحق وضع الفساد في الأرض مُستحقاً لعقوبة القتل. والفساد هو إخراج الصالح عن صلاحيته، والمطلوب منا إيمانياً أن الأمر الصالح في ذاته علينا أن نُبقيه صالحاً، فإن استطعنا أن نزيده صلاحاً فلنفعل وإن لم نستطع فلنتركه على صلاحه.

ولماذا جاء الحق بعقابٍ للفساد في الأرض؟. مدلول الأرض: أنها المنطقة التي استخلف الحق فيها البشر، وساعة يقول الحق: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فمعنى ذلك أن كل فساد عائد على كل مظروف في الأرض. وأول مظروف في الأرض أو السيد لها هو الإنسان. وعندما نفسد في الإنسان، فهذا معناه قتل الإنسان.

إذن لابد أن يكون الفساد في أشياء أخرى: هي الأكوان أو الأجناس الأخرى؛ الحيوانات والنباتات والجمادات. والفساد في هذه الكائنات يكون بإخراجها عن مستحوزها ملكيةً، كأن تسطو جماعة على بضاعة إنسان آخر، أو أن يأخذ واحد ثمار زرع لأحد، أو أن يأخذ بعضاً من إنتاج منجم منجنيز أو حديد أو خلافه.

إن الفساد نوعان: فساد في الأرض وهو متعلق بالمظروف في الأرض، والمظروف في الأرض سيد وهو الإنسان، والفساد فيه قتله أو أن تُسبب له اختلالاً في أمنه النفسي كالقلق والاضطراب والخوف. ونلحظ أن الحق سبحانه قد امْتَنّ على قريش بأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

إذن فمن الفساد تفزيع الناس وترويعهم وهو قسمان: قسم تُفَزِّع فيه مَن لك عنده ثأر أو بينك وبينه ضغينة أو بُغض، أو أن تُفَزِّع قوماً لا علاقة بينك وبينهم ولم يصنعوا معك شيئاً. فمن يعتدي على إنسان بينه وبينه مشكله أو عداوة أو بغضاء، لا نُسمّيه خارجاً على الشريعة؛ بأخذ حقه، ولكنه لا يستوفي حقه بيده بل لابد من حاكم يقوم بذلك كي ينضبط الأمر ويستقيم، إنه يخرج على الشريعة فقط في حالة العُدوان.

أما الذي يذهب للاعتداء على الناس ولم يكن بينه وبينهم عداء؛ فهذه هي الحرابة. كأن يخرج ليقطع الطريق على الناس ويخيف كل من يلقاه ويُسبِّب له القلق والرّعب والخوف على نفسه وماله، والمال قد يكون من جنس الحيوان أو جنس النبات أو جنس الجماد. وذلك ما يسميه الشرع حرابة وستأتي لها آية مخصوصة.

إذن. فالفساد في الأرض معناه إخراج صالح عن صلاحه مظروف في الأرض، والمظروف في الأرض سيده الإنسان، والإفساد فيه إما بقتله أو إهاجته وإشاعة الرّعب فيه، وإما بشيء مملوك له من الأشياء التي دونه في الجنسية مثل الزروع أو النباتات أو الحيوانات. فكأن الفساد في الأرض- أيضاً- يؤهل لقتل النفس:

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾.

أي أن القتل بغير إفساد في الأرض؛ هو القتل الذي يستحق العقاب. أما القتل بإفساد في الأرض فذلك أمر آخر؛ لأن هناك فارقاً بين أن يُقتل قِصاصاً أو أن يقتل حدًّا من المُشرِّع؛ وحتى عفو صاحب الدم عن القاتل في الحرابة وقطع الطريق لا يشفع في ذلك ولا يسقط الحد عن الذي فعل ذلك؛ لأنها جريمة ضد المجتمع كله.

ويتابع سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ والمُسرف هو المُتجاوز للحَد، وهو من لا يأخذ قدر تكوينه وموقعه في الوجود، بل يحاول أن يخرج عن قدر إمكاناته في الوجود.

مثال ذلك: رجل حاول أن يسطو على حق غيره في الوجود؛ متخطياً منزلة الاعتدال فلا يأخذ حقه فقط. مثل قطاع الطريق أو النهابين يأخذون عرق غيرهم وتعودوا أن

يعيشوا كذلك وبراحة. والمصيبة لا تكون في قاطع الطريق وحده، ولكن تتعداه إلى المجتمع. فيقال: إن فلاناً يجلس في منزله براحة وتكفيه ساعة بالليل ليسرق الناس.

إن الأمر لا يقف عند حدود ذلك الإنسان إنما يتعدّاه إلى غيره. ويحيا من يملك مالاً في رُعب، وعندما يُفجَع في زائد ماله، يفقد الرغبة في أن يتحرك في الحياة حركة زائدة تُنتج فائضاً لأنه لا يشعر بالأمن والأمان. وعندئذ يفقد العاجز عن الحركة في المجتمع السند والعون من الذي كان يتحرك حركةً أوسع. إذن من رحمة الله أنه فتح أمام البشر أبواب الآمال في التملُّك، مادام السعي إلى ذلك يتم بطرق مشروعة.

ونضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى –: الرجل المُرابي الذي يُقرض مُحتاجاً مائة جنيه، كيف يطلب المرابي زيادة مِمّن لا يجد شيئا يقيم به حياته؟ إنه بذلك يكون قد أعطى مَن وجد أزيد مما أخذ منه مع فقره وعجْزه. إن ذلك هو الإسراف عينه.

شبهات حول آدم وحواء

أولًا: أثار البعض من المفسرين شبهة من الشبهات حول آدم وحواء بعد أن أهبطا إلى الأرض، وقد قالوا أن آدم وحواء لم ينجبا أولاد إلا بعد هبوطهما من الجنة، حيث أن آدم لم يطأ حواء في الجنة وإنما تغشاها بعد أن أهبطا على الأرض، وقالوا إنه كان لا يعيش لهما ولد؛ وأن آدم كان يسمي أولاده عبد الله وعبيد الله (أي أعبدهم لله) ونحو ذلك فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسمينانه به لعاش، فولدت حواء لآدم ولدًا فسماه عبد الحارث، والحارث من أسماء إبليس، وقالوا إن هذا سبب نزول الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189].

وهذا الكلام لا يصح في حق آدم وحواء عليهما السلام وقد رد ابن كثير رحمه الله على ذلك وضعف الأحاديث الواردة فيه فقال:

«ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام. وأنه خلق منه زوجه حواء ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]، وقال في هذا الآية الكريمة ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189] أي ليألفها ويسكن بها، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21] فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾

[الأعراف: 189] أي وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألماً، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة.

وقوله ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله، وروي عن الحسن وإبراهيم النخعي والسدي نحوه، وقال ميمون بن مهران عن أبيه: استخفته. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ قال: لو كنت رجلاً عربيًّا لعرفت ما هي إنما هي فاستمرت به، وقال قتادة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ استبان حملها. وقال ابن جرير: معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت. وقال العوفي عن ابن عباس: استمرت به فشكَّت أحملتْ أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي بشراً سويًّا، كما قال الضحاك عن ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة، وكذلك قال أبو البختري وأبو مالك: أشفقا أن لا يكون إنساناً.

وقال الحسن البصري: لئن آتيتنا غلاماً ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: 189 - 190] يذكر المفسرون ههنا آثاراً وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها، ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح في ذلك إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد: حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي ﷺ قال «لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره».

وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به، ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعاً، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً.

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعاً، قلت: وشاذ هو هلال، وشاذ لقبه، والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه **(أحدها)** أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به، ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً، فالله أعلم.

(الثاني) أنه قد روي من قول سمرة نفسه ليس مرفوعاً، كما قال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر عن أبيه، حدثنا بكر بن عبد الله بن سليمان التيمي عن أبي العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال: سمى آدم ابنه عبد الحارث.

(الثالث) أن الحسن البصري نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عدل عنه.

قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا**﴾ [الأعراف: 190] قال: كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم.

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال: قال الحسن: عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعني ﴿**جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا**﴾.

وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضي الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره ولا سيما مع تقواه لله وورعه، فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع، والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحاق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: إنكما لو سميتماه بغير الذي تسميانه به لعاش، قال: فولدت له رجلاً فسماه عبد الحارث، ففيه أنزل الله يقول ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: 189 - 190]، وقال العوفي عن ابن عباس قوله في آدم ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ شكت أحملت أم لا؟ ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فأتاهما الشيطان، فقال: هل تدريان ما يولد لكم؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه غوي مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًّا ومات كما مات الأول، فسميا ولدهما عبد الحارث، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية.

وقال عبد الله بن المبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ قال: قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم ﴿حَمَلَتْ﴾ فأتاهما إبليس لعنه الله فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرنيْ إيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما، فسمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال: أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن - يخوفهما - فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، ومن الطبقة الثانية قتادة والسدي وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه ـ والله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أُبي بن كعب، كما رواه ابن أبي حاتم: حدثنا أُبي، حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد يعني ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك، سميه عبد الحارث فلم تفعل فولد فمات ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ثم حملت الثالثة فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة، فهيبهما فأطاعا.

وهذه الآثار يظهر عليها ـ والله أعلم ـ أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم» ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً، ومنها ما هو مسكوت عنه فهو المأذون في روايته بقوله عليه السلام «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» وهو الذي لا يُصَدَّق ولا يكذب لقوله «فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم».

وهذا الأثر هو من القسم الثاني أو الثالث فيه نظر فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث.

وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس كقوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 5] ومعلوم أن المصابيح وهي النجوم التي زينت بها السماء ليست هي التي يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر في القرآن والله أعلم.[1]

1- تفسير ابن كثير رحمه الله.

وخلاصة الأمر كما أوضح ابن كثير بأنه لا يوجد حديث صحيح أو أثر صحيح فيما ذهب إليه بعض المفسرين من أن آدم وحواء قد استمعا إلى وسوسة إبليس مرة أخرى بعد أن استمعا إليه في الجنة، وأن سياق الآيات لايشير إلى آدم وحواء وإنما إلى المشركين الذين رزقهم الله بالأولاد ثم جعلوهم مشركين بالله وهذا لا يجوز في حق آدم وحواء عليهما السلام.

ثانيًا: مما قالوا من شبهات حول آدم وحواء أنهم تعجبوا أن يزوج آدم عليه السلام أولاده بعضهم من بعض، فيتزوج الأخ من أخته غير التوأم له، فقالوا إن ذلك يعني أن البشرية كلها ثمرة زنا المحارم!!

وذهب بهم خيالهم إلى القول بأن الرب أنزل من الجنة بنات فزوجهن لأولاد آدم عليه السلام، وأنزل من الولدان المخلدين شبابًا تزوجوا من بنات آدم عليه السلام، فكان نسل البشرية حلالًا وليس سفاحًا ونسبوا هذا القول للإمام الصادق في كتاب العلل.

وكذلك استندوا إلـى سفر التكويـن (العهد القديم) حيث جاء فيه: «أن أبناء الله - الملائكة - رأوا نبات الناس أنهن حسنات دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا» (6:4).

والقول بأن لله عز وجل بنات أو أولادًا من الملائكة أو غيرهم ينافي عقيدة التوحيد، ويكرر قول كفار قريش وغيرهم الذين قالوا إن الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: 19] وقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: 27].

وأمر تزويج آدم عليه السلام لأولاده بعضهم من بعض كما ذكر ذلك الصحابة وغيرهم كان أمرًا مؤقتًا وشرعًا من الله، فالشرع هو تعاليم رب العالمين للبشر، وكان شرع الله لآدم عليه السلام تزويج الأخ من أخته بخلاف شرائع من جاء بعده وقد

قال في ذلك ابن كثير رحمه الله: إن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته ببنيه لضرورة الحال، ولكن قالوا كان يولد له في كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر.

قال السدي فيما ذكر عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن مُرَّة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ومعه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن من غلام هذا البطن الآخر.[1]

فالذي يقرر أن هذا حلال وهذا حرام هو الله عز وجل، وقد يكون أمرًا من الأمور حرامًا على قوم في زمن ما ثم يحلله الله بعد ذلك لآخرين وقد جاء في القرآن الكريم على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام لبني إسرائيل:

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران : 50].

وقال أيضاً: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف : 157].

ونهى الله عز وجل أن يحرم الإنسان ويحلل لنفسه ما يريد ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل : 116].

فلا يجوز أن نقول إن ما فعله آدم عليه السلام كان نوعًا من زنا المحارم أو نقول إن الله عز وجل زوج بني آدم من الملائكة أو غيرهم من المخلوقات بغير دليل أو علم.

فقد نهى الله عز وجل عن الادعاء عليه والقول عليه بغير علم حيث قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام : 100].

وقال أيضًا ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل : 57].

1- انظر تفسير ابن كثير لسورة المائدة آية ٢٧.

مغارة الدم أو «مغارة الأربعين»
ومقتل هابيل ودفنه فيها

اختلف العلماء وأهل التواريخ في المكان الذي قتل قابيل فيه أخاه هابيل فمنهم من قال بالبصرة ومنهم من قال بجبل قاسيون شمال دمشق في مغارة تدعى مغارة الدم، وقيل محل القتل عند عقبة حراء.

ذكر ابن كثير رحمه الله أن المكان الذي شهد مقتل هابيل في جبل قاسيون شمالي دمشق قال:

وبجبل قاسيون شمالي دمشق مغارة يقال لها مغارة الدم، مشهورة بأنها المكان الذي قتل قابيل أخاه هابيل عندها، وذلك مما تلقوه عن أهل الكتاب فالله أعلم بصحة ذلك.

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن كثير - وقال إنه كان من الصالحين - إنه رأى النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وهابيل، وأنه استحلف هابيل أن هذا دمه فحلف له، وذكر أنه سأل الله تعالى أنه جعل هذا المكان يستجاب عنده الدعاء، فأجابه إلى ذلك، وصدقه في ذلك رسول الله ﷺ وقال: إنه وأبا بكر وعمر يزورون هذا المكان في كل يوم خميس قال ابن كثير رحمه الله: وهذا منام ولو صح عن أحمد بن كثير هذا لم يترتب عليه حكم شرعي والله أعلم.[1]

وقد ذكروا أن قابيل حمل هابيل على ظهره سنة وقال آخر أن حمله مائة سنة ولم يزل كذلك حتى بعث الله غرابين قال السدي عن هذا الغرابين: أخوين، فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر، فلما قتله عمد إلى الأرض فحفر له فيها ثم ألقاه ودفنه وواراه، فلما رآه يصنع ذلك قال: يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب، فأواري سوأة أخي.

1- انظر قصص الأنبياء لابن كثير - تاريخ دمشق لابن عساكر.

ففعل مثل ما فعل الغراب، فواراه ودفنه. [1]

ونعود إلى مغارة الدم التي يقال إن هابيل مدفون بها:

تسمى بمغارة الأربعين لأن أربعين محرابًا يقعون فوقها، وفي زاوية المغارة فتحة تمثل فمًا كبيرًا يظهر اللسان والأسنان والأضراس وسقف الفم وأمامها على الأرض صخرة عليها خط أحمر يمثل لون الدم، ولهذا السبب سميت بمغارة الدم، وفي سقف المغارة شق صغير يتساقط منه الماء في جرف صغير يأخذ منه الناس الذين يزورونها ظنًّا منهم أنه ماء مبارك يشفي من الأمراض؛ ويقال إن تلك المياه هي دموع الجبل حيث شهد مقتل هابيل وبقيت دموعه تقطر من وقتها إلى الآن وأن الجبل فتح فاه يريد أن يبتلع القاتل ففر منه وأن الجبل شهق من هول ما رأى ومعالم الفم ظاهرة وقالوا إن جبريل قام برفع الجبل الذي أراد أن يطبق على قابيل الذي قتل أخاه هابيل وتظهر معالم الأصابع واضحةً في الجبل وقيل إنه في يوم من الأيام كاد أن يسقط سقف مغارة الدم على أحد الأنبياء فقام سيدنا جبريل عليه السلام بوضع كفه على سقف المغارة فمنعه من السقوط، وبقي أثر كفه في سقف المغارة، وبجواره توجد كلمة الله بارزة على الصخر.

ويوجد قطعة من الحجر التي يقال إن قابيل قتل أخاه هابيل فيها ولا تزال موجودة في هذه المغارة منذ ارتكاب هذه الجريمة. ويوجد محرابان يعتقد أن أحدهما للنبي إبراهيم والآخر للخضر قيل إنهما كانا هنا في الماضي وكانا يصليان كل في محرابه، فالمحراب الأول للنبي إبراهيم والثاني للخضر والله أعلم.

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أن إلياس النبي اختبأ من ملك قومه في الغار الذي تحت الدم عشر سنين حتى أهلك الله تعالى الملك وولاه غيره فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم.

ويوجد أربعون محراباً خارج المغارة فوقها تقريباً، تعود إلى ما يُعرف بالأولياء الأبدال

1- المصدر السابق.

وهم أربعون رجلًا صالحًا أتوا وتعبدوا في هذا المكان قديمًا قبل الإسلام،[1] ولهذا السبب سمي الجبل والمقام بالأربعين.

وقال الرحالة ابن بطوطة عن تلك المغارة من خلال زيارته لدمشق عام 1324م: مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرًا محمرًّا، وهو الموضع الذي قتله أخوه به واجتره إلى المغارة وعليها مسجد متقن البناء يصعد إليه على درج.

ولا شك أن الجبال لها أثر في حياة الأنبياء والصالحين عبر التاريخ الإنساني، فقد ذكر أهل التواريخ أن آدم حين أهبط على الأرض أهبط في جبل في «سرنديب» بالهند وأن نوح عليه السلام حين استقرت به السفينة على الأرض بعد الطوفان استقرت على جبل «الوادي»، وكذلك «موسى عليه السلام» كلمه الله على جبل الطور وفتية أهل الكهف لجأوا إلى كهف في جبل الرقيم، وعيسى وأمه آويا إلى ربوة ذات قرار ومعين.

والنبي الخاتم ﷺ كان يتعبد قبل البعثة في مغارة في جبل حراء ثم لجأ إلى مغارة في جبل ثور في طريقه إلى المدينة المنورة مهاجرًا، وفي غزوة أُحُد لجأ ومن معه من المسلمين إلى جبل أُحُد يتحصنون به وقال عنه: «أُحُد جبل يحبنا ونحبه». وهكذا الجبال والمغارات ليست بجمادات وإنما كالكائنات الحية شهدت أحداثًا عظامًا على مر التاريخ فلا يستعجب أن تكون مغارة الدم قد شهدت تلك الحادثة الهامة في تاريخ البشرية والله أعلم.

وأما مغارة الدم التي هي موضع حديثنا فقد قيل عن سبب تسميتها أيضًا بذلك هو أن الله عز وجل أبقى أثرًا في الصخر ليكون عبرة، بالإضافة أنها تسمى أيضًا بمغارة الأربعين. وقيل أيضًا إن سبب التسمية إقامة نبي الله يحيى بن زكريا وأمه فيها أربعين يومًا.

وأعلى المغارة على سطح الجبل يوجد بقعة من الصخر تختلف حجارتها عن باقي حجارة الجبل وهي بلون وردي يقال إنها آثار دم هابيل.

1- ويوجد مسجد بجوار المغارة يقال بناه السلطان العثماني عبدالحميد.

وفي المغارة كما قلنا توجد قطعة حجر يقال إنها جزء من الحجر الذي استعمله قابيل في قتله لأخيه وعليه آثار الدم.

وممن شاهد تلك المغارة ابن جرير الأندلسي عام 1183م وأبو حامد الغرناطي عام 1160، وابن بطوطة عام 1324م وابن طولون عام 1532م ، وهم من الرحالة العرب المعروفين.

قال ابن جرير الأندلسي: وبجبل قاسيون أيضًا لجهة الغرب على مقدار ميل أو أزيد من المولد المبارك، مغارة تعرف بمغارة الدم، لأن فوقها في الجبل دم هابيل قتيل أخيه قابيل ابني آدم ﷺ، يتصل من نحو نصف الجبل إلى المغارة، وقد أبقى الله منه في الجبال أثرًا أحمرَ في الحجارة تحك فتستحيل، وهي كالطريق في الجبل، وتنقطع عند المغارة، وليس يوجد في النصف الأعلى من المغارة آثار تشبهها، فكان يقال: إنها لون حجارة الجبل، وإنما هي من الموضع الذي جر منه القاتل أخاه حيث قتله ثم انتهى إلى المغارة، وهي من آيات الله تعالى وعليها مسجد قد أتقن بناؤه وتصعد إليه على أدراج «سلالم».

وقال ابن بطوطة الرحالة الشهير: مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام، وقد أبقى الله منه في الحجارة أثرًا محمرًّا وهو الموضع الذي قتله أخوه به، واجتر إلى المغارة وعليها مسجد متقن يصعد إليه على درج «سلالم».

وقال ابن طولون الرحالة: وأما مغارة الدم في أعلى الجبل فتشمل على مكان لطيف شريف، عليه الهيبة والوقار والدعاء عنده مستجاب وتسمى الآن بمغارة الأربعين.

وقال أبو حامد الغرناطي في وصفه للمكان حين زاره: ولما دخلت دمشق رأيت عند باب يعرف بباب الفراديس جبلًا مشرفًا عاليًا، وعليه آثار دم هابيل بن آدم عليه السلام ظاهرًا وهو دم كثير لا يخفى على من يراه أنه دم.

سبب اختيار الله عز وجل الغراب كي يعلم قابيل دفن أخيه

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 31].

كان قتل قابيل لأخيه هابيل أول جريمة قتل بشرية تحدث على الأرض ولم يكن ابن آدم عليه السلام يعلم كيفية دفن الجثث فبعث الله غرابًا ليعلمه كما جاء في الآية السابقة والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا اختار الله الغراب دون غيره؟

يقول د. زغلول النجار:

أثبتت الدراسات العلمية أن الغراب هو أذكى الطيور وأمكرها على الإطلاق، ويعلل ذلك بأن الغراب يملك أكبر حجم لنصفي دماغ بالنسبة إلى حجم الجسم في كل الطيور المعروفة. ومن بين المعلومات التي أثبتتها دراسات سلوك عالم الحيوان محاكم الغربان وفيها تحاكم الجماعة أي فرد يخرج على نظامها حسب قوانين العدالة الفطرية التي وضعها الله سبحانه وتعالى، ولكل جريمة عند جماعة الغربان عقوبتها الخاصة بها، فجريمة اغتصاب طعام الأفراخ الصغار: العقوبة تقضي بأن تقوم جماعة من الغربان بنتف ريش الغراب المعتدي حتى يصبح عاجزًا عن الطيران كالأفراخ الصغيرة قبل اكتمال نموها.

وجريمة اغتصاب العش أو هدمه: تكتفي محكمة الغربان بإلزام المعتدي ببناء عش جديد لصاحب العش المعتدَى عليه.

وجريمة الاعتداء على أنثى غراب آخر: فهي تقضي جماعة الغربان بقتل المعتدي ضربا بمناقيرها حتى الموت.

وتنعقد المحكمة عادة في حقل من الحقول الزراعية أو في أرض واسعة، تتجمع فيه هيئة المحكمة في الوقت المحدد، ويجلب الغراب المتهم تحت حراسة مشددة، وتبدأ محاكمته فينكس رأسه، ويخفض جناحيه، ويمسك عن النعيق اعترافا بذنبه. فإذا صدر الحكم بالإعدام، قفزت جماعة من الغربان على المذنب توسعه، تمزيقا بمناقيرها الحادة حتى يموت، وحينئذ يحمله أحد الغربان بمنقاره ليحفر له قبرا يتوائم مع حجم جسده، يضع فيه جسد الغراب القتيل ثم يهيل عليه التراب احتراما لحرمة الموت. وهكذا تقيم الغربان العدل الإلهي في الأرض أفضل مما يقيمه كثير من بني آدم.

وأثبت العلماء المختصون بدراسة علم سلوك الحيوانات والطيور في أبحاثهم، أن الغراب من بين سائر الحيوانات والطيور الذي يقوم بدفن موتاه.

ولا نملك إلا أن نقول: سبحان الله الخالق العظيم.

قال السمرقندي:

قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقابيل ينظر إليه.

وقال القتبي: هذا من الاختصار، ومعناه بعث غرابًا يبحث التراب على غراب ميت ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ يعني كيف يغطي عورة أخيه ﴿قَالَ﴾ قابيل عند ذلك: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ﴾ يعني أضعفت في الحيلة ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ يعني فأغطي عورة أخي ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ على حمله حيث لم يدفنه حين قتله.

قال ابن عباس: ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه.

ويقال: إن آدم وحواء أتيا قبره وبكيا أيامًا عليه، ثم إن قابيل كان على ذروة جبل، فنطحه ثور فوقع على السفح فتفرقت عروقه.

ويقال: دعا عليه آدم فانخسفت به الأرض.

وقال مقاتل: كان قبل ذلك السباع والطيور تستأنس بآدم، فلما قتل قابيل أخاه هربوا فحلقت الطيور بالهواء والوحوش بالبرية والسباع بالغياض، فتزوج شيث عليه السلام بإقليما.

قال الدكتور محمد أبو شهبة في قصة ابني آدم:

ومن ذلك: ما ذكره بعض المفسرين كابن جرير الطبري في تفسيره، والسيوطي في تفسيره: «الدر المنثور» في قصة ابني آدم: قابيل، وهابيل، وقتل أولهما الآخر، ما روى عن كعب: أن الدم الذي على جبل قاسيون هو دم ابن آدم، وعن وهب: أن الأرض نشفت دم ابن آدم فلعن ابن آدم الأرض، فمن أجل ذلك لا تنشف الأرض دما بعد دم هابيل إلى يوم القيامة، وأن قابيل حمل هابيل سنة في جراب على عنقه، حتى أنتن وتغير، فبعث الله الغرابين قتل أحدهما الآخر، فحفر له، ودفنه، برجليه ومنقاره، فعلم كيف يصنع بأخيه، مع أن القرآن عبر بالفاء، التي تدل على الترتيب والتعقيب من غير تراخٍ، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾.

وروى أيضا: أنه لما قتله اسودَّ جسده، وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه، فقال: ما كنت عليه وكيلا، قال: بل قتلته فلذلك اسودَّ جسدك، إلى نحو ذلك.

فكل هذا وأمثاله عدا ما جاء في القرآن من إسرائيليات بني إسرائيل، وقد جاءت بعض الروايات صريحة عن كعب، ووهب، وما جاء عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهما، فمرجعه إلى أهل الكتاب الذين أسلموا.

ما نسب إلى آدم عليه السلام من قول الشعر:

ومن الإسرائيليات: ما رواه ابن جرير في تفسيره، وما ذكره السيوطي في الدر: من أن آدم لما قتل أحد ابنيه الآخر، مكث مائة عام لا يضحك حزنا عليه، فأتى على رأس المائة، فقيل له: حياك الله وبياك، وبُشر بغلام، فعند ذلك ضحك.

وكذلك ما ذكره من أن آدم عليه السلام رثى ابنه بشعر، روى ابن جرير عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما قتل ابن آدم أخاه بكى آدم، فقال:

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح

تغير كـل ذي لون وطعم وقلَّ بشاشة الوجـه المليح

قال السيوطي: وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال: لما قَتل ابن آدم

أخاه قال آدم عليه السلام: وذكر البيتين السابقين باختلاف قليل.

فأجابه إبليس عليه اللعنة:

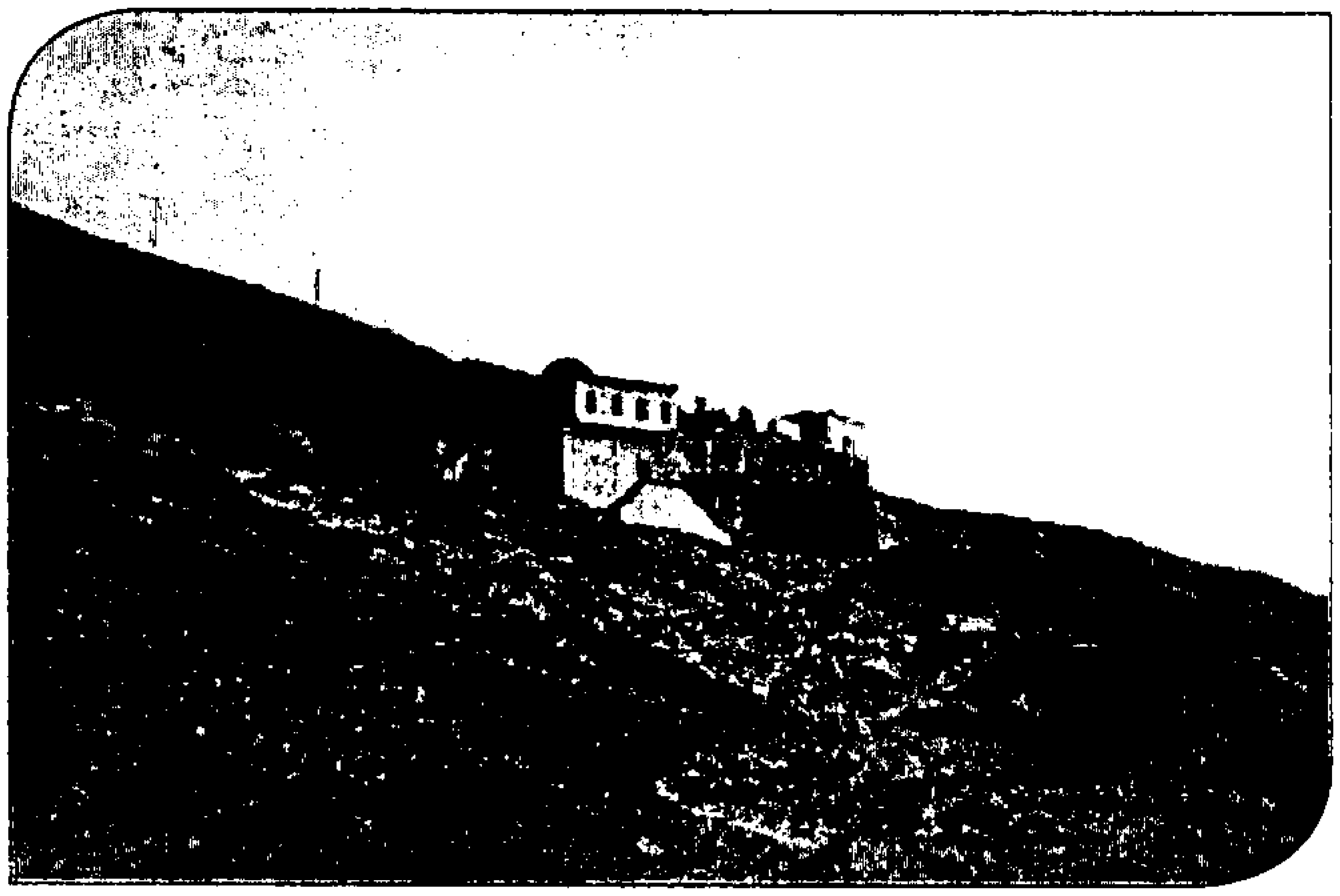
تـنـح عن البـــلاد وساكنيها	فبي في الخلد ضاق بك الفسيح
وكنت بها وزوجك في رخاء	وقلبـك من أذى الدنيـــا مريح
فما انفكت مكايدتي ومكـري	إلـــى أن فاتـك الثمن الربيــح

وقد طعن في نسبة هذه الأشعار إلى نبي الله آدم الإمام الذهبي في كتابه: ميزان الاعتدال، وقال: إن الآفة فيه من المحزمي أو شيخه.

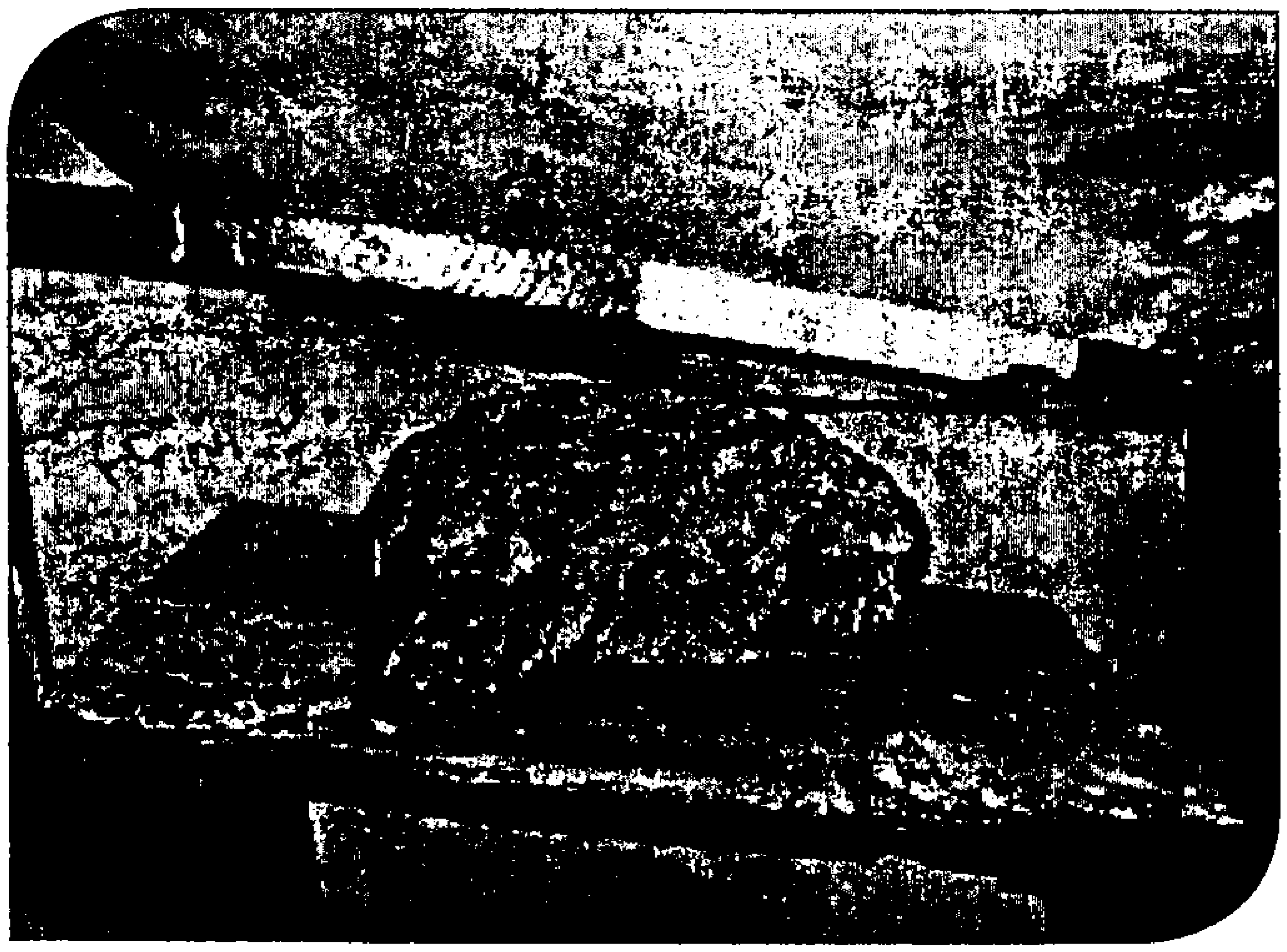
وما الشعر الذي ذكروه إلا منحول مختلق، والأنبياء لا يقولون الشعر، وصدق الزمخشري حيث قال: «روي أن آدم مكث بعد قتل ابنه مائة سنة لا يضحك، وأنه رثاه بشعر، وهو كذب بحت، وما الشعر إلا منحول ملحون، وقد صح أن الأنبياء معصومون من الشعر».

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: 69].

وقال الإمام الآلوسي في تفسيره: وروي عن ميمون بن مهران عن الحبر ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «من قال: آدم عليه السلام قد قال شعرا فقد كذب، إن محمدًا ﷺ والأنبياء كلهم في النهى عن الشعر سواء، ولكن لما قتل قابيل هابيل بكاه آدم بالسريانية، فلم يزل ينقل، حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية، والسريانية، فقدم فيه وأخر، وجعله شعرا عربيا» وذكر بعض علماء العربية: أن في ذلك لحنا، وإقواء، وارتكاب ضرورة والأولى عدم نسبته إلى يعرب لما فيه من الركاكة الظاهرة والحق أنه شعر في غاية الركاكة والأشبه أن يكون هذا الشعر من اختلاق إسرائيلي ليس له من العربية إلا حظ قليل أو قصاص يريد أن يستولي على قلوب الناس بمثل هذا الهراء.



مغارة الدم أو مغارة الأربعين على جبل قاسيون شمال دمشق.



صورة قيل إنها للحجر الذي استخدمه قابيل في قتل أخيه هابيل وعليه أثر الدم.

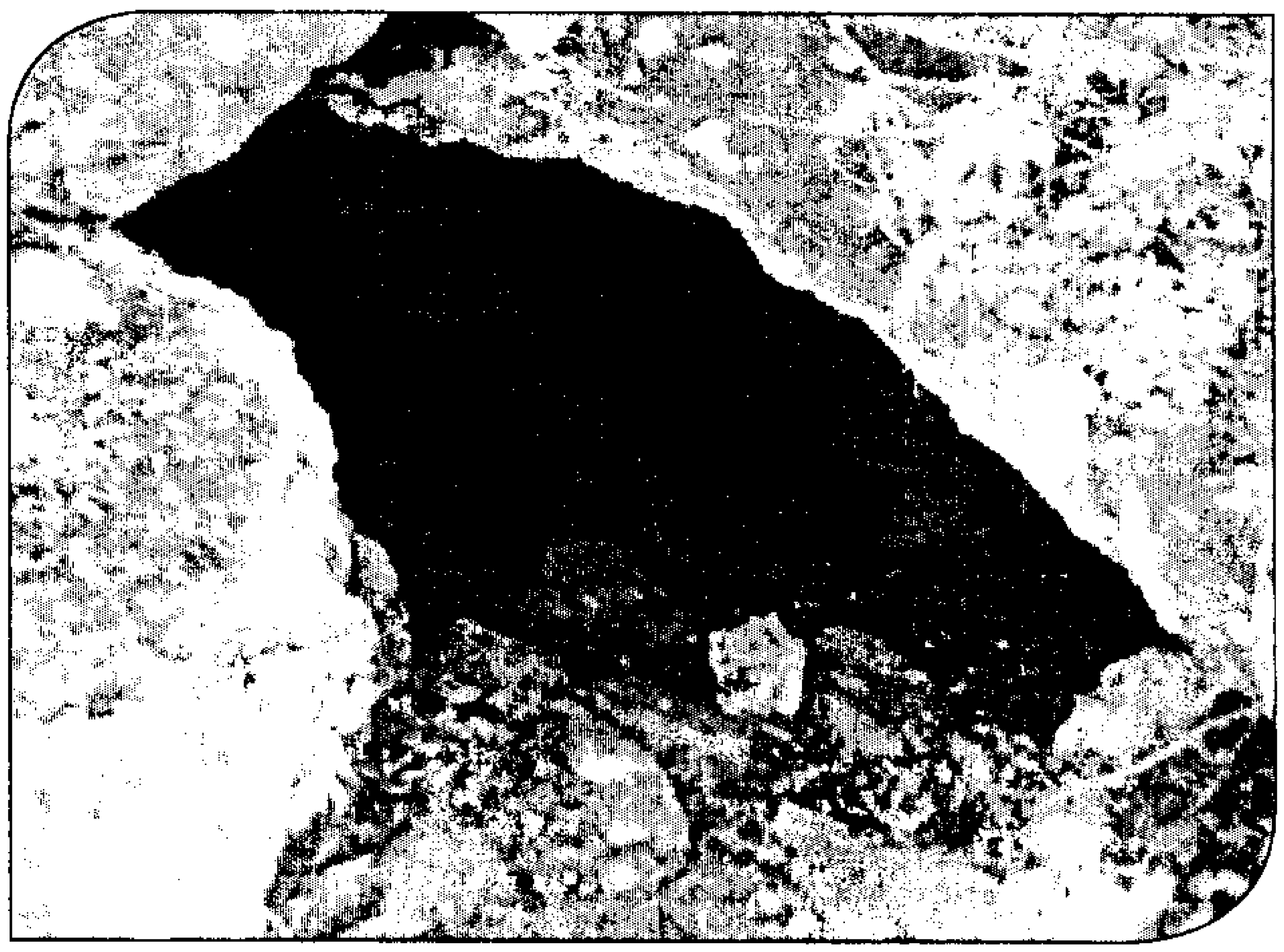




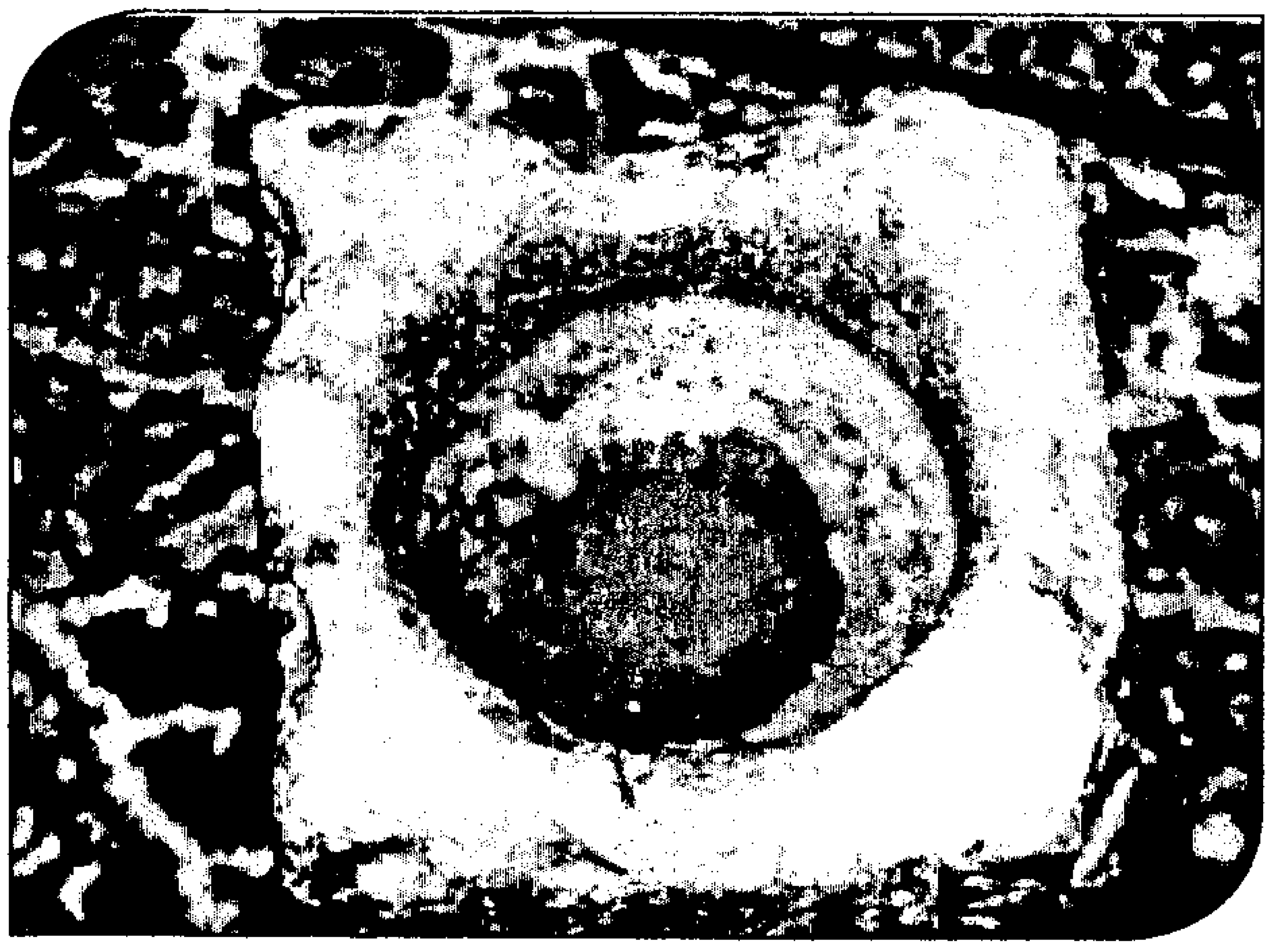
مجرى الماء الذي يتساقط من الجبل ويقال إنه دموع الجبل حزنًا على مقتل هابيل يتساقط منه منذ مقتل هابيل إلى الآن ويتجمع في الغار يشرب منه الناس.



مغارة الدم ويبدو اللسان والأضراس ظاهرة فيها.



مدخل مغارة الدم أو مغارة الأربعين.



المكان الذي يتساقط فيه الماء ويقال: إنه دموع الجبل.

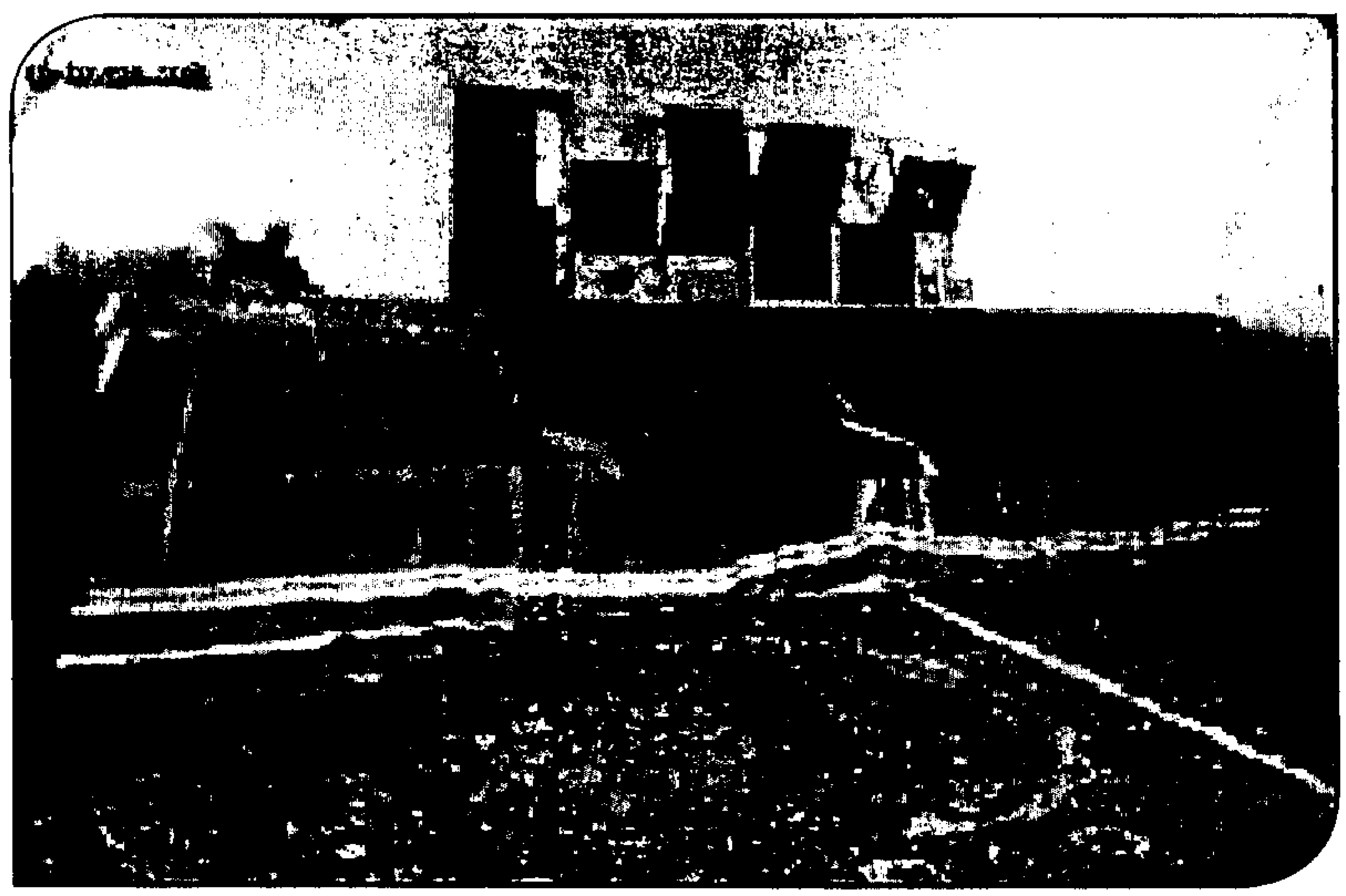


مدخل المغارة الخارجي.





الغراب أحد أبطال قصة قابيل وهابيل ومعلم قابيل كيفية دفن أخيه المقتول هابيل.



القبر الذي يزعمون أنه لهابيل ابن آدم في مغارة الدم (الأربعين) شمال دمشق ويلاحظ حجم القبر حيث أن آدم وابنيه الأوائل كان طول الواحد منهم ستون ذراعاً.





صورة تخيلية لقصة قابيل وهابيل.

3 قابيل وذريته

- أين ذهب قابيل بعد قتله أخاه؟
- هل تاب قابيل؟
- احذروا قابيل وذريته.
- بنو شيث يخالفون وصية آبائهم ويتبعون أبناء قابيل..

أين ذهب قابيل بعد قتله أخاه

لم يذكر القرآن الكريم أين ذهب ابن آدم القاتل بعد قتله أخاه ولم يأت أي ذكر له في الأحاديث النبوية التي وصلتنا، إلا أن المؤرخين والمفسرين ذكروا أقوالًا كثيرة في ذلك، فقالوا إنه هلك بعد قتله أخاه عقابًا له على ذلك، ومنهم من قال إنه أخذ بأخته التوأم وهرب بها إلى عدن في اليمن وأنه هبط بها من جبل نود إلى الأسفل، وأنه قتل بعد ذلك حيث رماه لامك وهو أحد أبناء قابيل وكان أعمى فقتله؛ ومنهم من قال إنه طلب من الله أن ينظره كما قال إبليس فاستجاب الله له فهو من المنظرين ذكر ذلك ابن كثير وغيره نقلًا عن أهل الكتاب، ومن هنا ظن البعض أن قابيل هو المسيح الدجال.

وقد استدل من قال إنه قد عوجل بالعقوبة يوم قتل أخاه بالحديث النبوي الذي قال فيه ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». [1]

وقد ذكر ابن كثير كما ذكرنا أن الله عز وجل أجله وأنظره وأنه سكن أرض «نود» شرق عدن نقلًا عما جاء وكتب أهل الكتاب في (التوراة) وأنه يسمى عندهم قنين وأن أولاده هم «خنوح» وولد لأخنوخ عندر، ولعندر محاويل ولمحاويل ستوشيل، ولستوشيل لامك، وتزوج لامك امرأتين هما: عدا وصلا، فولدت عدا ولدًا اسمه أبل، وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولدت أيضًا «نوبل»، وهو أول من ضرب الونج والصنج، وولدت «صلا» ولدًا اسمه توبلقين وهو أول من صنع النحاس والحديد وبنتًا اسمها «نحما».

1- الحديث رواه أبو داود والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه ابن ماجه وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك وذكره ابن كثير في البداية والنهاية بعد أن ذكر قول مجاهد في ذلك.

وقال ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ أنه قيل إن قابيل قتل أخاه عند عقبة حراء، ثم نزل من الجبل وأخذ بيد أخته فهرب بها إلى عدن في اليمن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما قتل أخاه أخذ بيد أخته ثم هبط بها من جبل نود إلى الحضيض، فقال له آدم: اذهب فلا تزال مرعوبًا لا تأمن من تراه، فكان لا يمر به أحد من ولده إلا رماه، فأقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابن له، فقال الأعمى لابنه: هذا أبوك قابيل فارمه فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله.

فقال ابن الأعمى لأبيه: قتلت أباك.

فرفع الأعمى يده فلطم ابنه فمات.

فقال: يا ويلتي قتلت أبي برميتي وابني بلطمتي!!

وكان عمر قابيل لما قتل هابيل خمسًا وعشرين سنة، وكان عمر هابيل عشرين سنة[1]

1- الكامل في التاريخ – ابن الأثير.

هل تاب قابيل؟

استدل العلماء على عدم توبة قابيل وأنه مات كافرًا بقوله تعالى على لسان هابيل له: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: 29]، لأن لفظ أصحاب النار إنما ورد في الكفار.

قال ابن عطية في المحرر الوجيز: واختلف العلماء في قابيل هل هو من الكفار أو من العصاة، والظاهر أنه من العصاة، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلا فخذوا من خيرهما ودعوا الشر. انتهى.

ولكن هذا الحديث وإن صح لا يعني ولا يفيد أنه من العاصين.

قال القرطبي في تفسيره: وبالرغم مما رجحه بعض علماء التفسير من عدم كفر قابيل، فإنه داخل في جملة من ورد فيهم الوعيد فيمن قتل مؤمنا متعمدا، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: 93].

كما وردت أخبار صحيحة منها قوله صلى الله عليه وسلم: لا يزال المؤمن في فُسحة من دينه ما لم يصب دما حراما. رواه البخاري وغيره.

وورد في خصوصه هو قوله ﷺ: ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها. رواه البخاري وغيره أيضا.

ومع كل هذا فإن القاتل تقبل توبته عند الجمهور إذا تاب توبة صادقة قال ابن كثير في تفسيره: والذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل، فإن تاب وأناب وخشع وخضع، وعمل عملا صالحا، بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: 68 - 70] وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل. والله أعلم.... إلى أن قال: فأما الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 93].

فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جُوزي عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك مُعارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قولي أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد، والله أعلم بالصواب.

ومن ارتكب معصية ثم مات على الإيمان قبل التوبة الصادقة فأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، ولا يمكن القطع له بتعذيب أو نعيم، ففي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبادة بن الصامت قال: بايعت رسول الله ﷺ في رهط. فقال: أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف. فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا، فأُخذ به في الدنيا فهو له كفارة وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

وفي شرح النووي لصحيح مسلم: وإن كان هذا من المخلطين بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه أو بفعل ما حرم عليه فهو في المشيئة لا يقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا باستحقاقه الجنة لأول وهلة، بل يقطع بأنه لابد من دخوله الجنة آخرا، وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة إن شاء الله تعالى عذبه بذنبه، وان شاء عفا عنه بفضله.(1)

1- تفسير القرطبي.

احذروا قابيل وذريته

أصبح قابيل رمزًا للشر والعصيان والعقوق للوالدين وقطع الأرحام وقد علق في رقبته كفل من دماء كل من قتل إلى يوم القيامة كما قال ﷺ في الحديث الصحيح عنه: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل» وقد عُلم من هذا الحديث أن قابيل لم يتب من قتله لهابيل، وأنه من اصحاب النار، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: 93] ولقوله تعالى كما قال هابيل: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: 29].

وانتهى ذكر قابيل في آيات سورة المائدة بعد دفنه جثمان أخيه وقد تعلم ذلك من الغراب الذي أرسله الله ليعلمه ذلك، ولم يرد شيء في السنة النبوية عن المكان الذي توجه إليه قابيل ونهايته، واختلف المؤرخون في المكان الذي توجه إليه فقالوا إنه ذهب إلى الهند وقيل ذهب إلى مكان يقال له «نود» شرقي عدن كما جاء ذلك في العهد القديم عند اليهود.

فقد ذكر اليعقوبي في تاريخه أنه أقصى أرض «نود».

وذكر ابن كثير في قصص الأنبياء: وقد ذكر مجاهد أن قابيل عوجل له بالعقوبة يوم قتل أخاه، فعلقت ساقه إلى فخذه، وجعل وجهه إلى الشمس كيفما دارت، تنكيلاً لذنبه وبغيه وحسده لأخيه لأبويه، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ:

إنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يُعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه من الآخرة من البغي وقطيعة الرحم!».[1]

1- رواه أبو داود في سننه والترمذي في سننه وقال: هذا حديث حسن صحيح ورواه ابن ماجه في سننه وأحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد، والسيوطي في الفتح الكبير والحاكم في المستدرك والطبري في تاريخه عن أبي بكرة رضي الله عنه.

وقال أيضاً ابن كثير: والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذين يزعمون أنه التوراة: أن الله عز وجل أجله وأنظره.

وأنه سكن أرض «نود» شرق عدن وهم يسمونه «قنين» وأنه ولد له خنوخ، ولخنوخ عندر، ولعندر محوايل ولمحوايل متوشيل، ولموتشيل لامك، وتزوج هذا امرأتين: عدا وصلا، فولدت عدا ولدًا اسمه «ابل» وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولدت أيضًا «نوبل» وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج، وولدت «صلا» ولدًا اسمه «توبلقين» وهو أول من صنع النحاس والحديد، وبنتًا اسمها «نعمى».

وقد ذكر أهل التواريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة والله أعلم.[1]

وحكى الطبري أنه قيل لقابيل بعد أن قتل أخاه: اذهب، فذهب طريدًا شريدًا فزعًا مرعوبًا لا يأمن من رآه فأخذ بيد أخته «إقليما» وذهب بها إلى عدن بأرض اليمن، فأتى إليه إبليس وقال له: إنما أكلت النار قربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فانصب أيضًا أنت نارًا تكون لك ولعقبك وذريتك فبنى بيت النار فهو أول من نصب النار وعبدها.

وقالوا إن أولاد قابيل اتخذوا آلات اللهو من أنواع الطبول والمزامير وانهمكوا في اللهو وشرب الخمور والزنا وعبادة النار والأوثان والفواحش حتى أغرقهم الله بطوفان نوح عليه السلام وبقي نسل شيث عليه السلام الذي ورث التقوى والنبوة من آدم عليه السلام

وقد وصى آدم عليه السلام ابنه شيثًا كما ذكرنا أن يبتعد عن قابيل وأولاده وألا يعلمه أي شيء، فقد قام شيث بأعمال النبوة في ذرية آدم بعد موته وقد أوصاه بذلك قال اليعقوبي في تاريخه: ومكث آدم وحواء ينوحان على هابيل دهرًا طويلًا، حتى يقال إنه خرج من دموعهما كالنهر، ووقع آدم على حواء فحملت غلامًا، بعد أن أتى له مائة

1- انظر البداية والنهاية لابن كثير (قصص الأنبياء).

وثلاثون سنة، فسماه «شيثًا» فكان أشبه ولد آدم بآدم، ثم زوج آدم شيثًا فولد له غلام بعد أن أتت عليه مائة وخمس وستون سنة فسماه «أنوش» ثم ولد لأنوش غلام فسماه «قينان» ثم ولد لقينان غلام فسماه «مهلائيل»، فهؤلاء وُلدوا في حياة آدم وعلى عهده.

ولما حضرت آدم الوفاة جاءه «شيث» ابنه وولده وولد ولده، فصلى عليهم ودعا لهم بالبركة، وجعل وصيته إلى «شيث» وأمره أن يحفظ جسده ويجعله إذا مات في مغارة الكنز وأن يوصي بنيه وبني بنيه، ويوصى بعضهم بعضًا عند وفاتهم إذا كان هبوطهم من جبلهم أن يأخذوا جسده فيجعلوه وسط الأرض، وأمر شيثًا ابنه أن يقوم بعده في ولدهم فيأمرهم بتقوى الله وحُسن عبادته.

وينهاهم أن يخالطوا قابيل اللعين وولده، ثم صلى على نبيه أولئك وأولادهم ونسائهم.

ثم مات لست خلون من نيسان «إبريل» يوم الجمعة في الساعة التي خُلق فيها وكانت حياته تسعمائة سنة وثلاثين سنة اتفاقًا.[1]

وقد تكررت وصية أبناء آدم عليه السلام وذريته من نسل شيث عليه السلام بأن يتجنبوا قابيل وأبناءه.

قال اليعقوبي في تاريخه:

«شيث بن آدم وقام بعد موت آدم ابنه شيث، وكان يأمر قومه بتقوى الله، سبحانه والعمل الصالح، وكانوا يسبحون الله ويقدسونه، وأبناؤهم ونساؤهم ليس بينهم عداوة، ولا تحاسد، ولا تباغض، ولا تهمة، ولا كذب، ولا خُلف، وكان أحدهم إذا أراد أن يحلف قال: لا ودم هابيل. (كذا)

فلما حضرت وفاة شيث أتاه بنوه وبنو بنيه، وهم يومئذ أنوش، وقينان، ومهلائيل، ويرد، وأخنوخ، ونساؤهم وأبناؤهم، فصلى عليهم، ودعا لهم بالبركة، وتقدم إليهم، وحلفهم بدم هابيل (كذا) ألا يهبط أحد منهم من هذا الجبل المقدس، ولا يتركوا أحدا من أولادهم يهبط منه، ولا يختلطوا بأولاد قابيل الملعون، وأوصى إلى أنوش ابنه، وأمره

1- تاريخ اليعقوبي.

أن يحتفظ بجسد آدم، وأن يتقي الله، ويأمر قومه بتقوى الله وحسن العبادة، ثم توفي يوم الثلاثاء لسبع وعشرين ليلة خلت من آب على ثلاث ساعات من النهار، وكانت حياته تسعمائة واثنتي عشرة سنة.

وقام أنوش بن شيث، بعد أبيه، بحفظ وصية أبيه وجده، وأحسن عبادة الله، وأمر قومه بحسن العبادة، وفي أيامه قُتل قابيل الملعون، رماه لمك الأعمى بحجر، فشدخ رأسه، فمات. وكان قد ولد لأنوش قينان بعد أن أتت له تسعون سنة.[1]

وهكذا نرى وصية شيث وأبنائه بعضهم لبعض بتقوى الله والابتعاد عن قابيل وأولاده، ثم زاد أن قابيل قُتل في أيام أنوش بن شيث بن آدم عليهم السلام وأن الذي قتله هو «لامك» الأعمى؛ و«لامك» من نسل قابيل وأيضاً هناك «لامك» من نسل شيث وهو والد نوح عليه السلام، أما «لامك» المقصود هنا هو أحد أحفاد قابيل فهو «لامك» ابن «متوشائيل» وهذا مذكور في العهد القديم سفر التكوين الإصحاح الرابع:

«فخرج قايين» من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن، وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك، وكان يبني مدينة فدعا اسم المدينة باسم ابنه حنوك، وولد حنوك عيراد، وعيراد ولد محويائيل ومحويائيل ولد متوشائيل، ومتوشائيل ولد «لامك».

ولما حضرت أنوش الوفاة اجتمع إليه بنوه وبنو بنيه: قينان، ومهلائيل، ويرد، واخنوخ، ومتوشلح، ونساؤهم وأبناؤهم، فصلى عليهم، ودعا لهم بالبركة، ونهاهم أن يهبطوا من جبلهم المقدس، أو يدعوا أحدا من بنيهم أن يختلطوا بولد قابيل اللعين، وأوصى قينان بجسد آدم، وأمرهم أن يصلوا ويقدسوا الله كثيرا، وتوفي لثلاث خلون من تشرين الأول، حين غابت الشمس، وكانت حياته تسعمائة وخمسا وستين سنة.

وقام قينان بن أنوش، وكان رجلا لطيفا، تقيا، مقدسا، فقام في قومه بطاعة الله وحسن عبادته، واتباع وصية آدم وشيث، وكان قد ولد له مهلائيل بعد أن أتت عليه سبعون سنة.

فلما دنا موته اجتمع إليه بنوه وبنو بنيه مهلائيل، ويرد، ومتوشلح، ولمك، ونساؤهم

1- تاريخ اليعقوبي.

وأبناؤهم، فصلى عليهم، ودعا لهم بالبركة، فأقسم عليهم بدم هابيل (كذا) أن لا يهبط أحد منهم من جبلهم المقدس إلى ولد الملعون قابيل، وجعل وصيته إلى مهلائيل، وأمره أن يحتفظ بجسد آدم. ومات قينان وكانت حياته تسعمائة سنة وعشرين سنة.[1]

وقال اليعقوبي:

ثم قام بعد قينان مهلائيل بن قينان، فقام في قومه بطاعة الله تعالى، واتباع وصية أبيه وكان قد ولد له «يرد»، بعد أن أتت عليه خمس وستون سنة.

فلما دنا موت مهائيل أوصى ابنه «يرد» وأوصاه بجسد آدم، ثم توفى «مهائيل» لليلتين خلتا من نيسان يوم الأحد، على ثلاث ساعات من النهار وكانت حياته ثمانمائة سنة وخمساً وتسعين سنة. (والله أعلم)

1- تاريخ اليعقوبي.

بنو شيث يخالفون وصية آبائهم ويتبعون أبناء قابيل

قال اليعقوبي: ثم قام بعد مهلائيل يرد، وكان رجلا مؤمنا، كامل العمل لله، سبحانه، والعبادة له، كثير الصلاة بالليل والنهار، فزاد الله في حياته، وكان قد ولد له أخنوخ، بعد أن أتت عليه اثنتان وستون سنة، وفي الأربعين ليرد تم الألف الأول.

ولما مضى من حياة «يرد» خمسمائة سنة نقض بنو شيث العهود والمواثيق التي كانت بينهم، فجعلوا ينزلون إلى الأرض التي فيها بنو قابيل، وكان أول نزولهم أن الشيطان اتخذ شيطانين من الإنس اسم أحدهما يوبل، والآخر توبلقين، فعلمهما أصناف الغناء والزمر، فصنع يوبل المزامير والطنابير والبرابط والصور.

وصنع توبلقين الطبول والدفوف والصنوج، ولم يكن لبني قابيل عمل يشغلهم، ولا ذكر لهم إلا أمام الشيطان، وكانوا يركبون المحارم والمآثم، ويجتمعون.[1]

وهكذا نرى أن بني شيث خالفوا تعاليم أبيهم وجدهم آدم وشيث بعدم النزول حيث يعيش بنو قابيل الذين هم أهل باطل وزور وكان من جراء اختلاطهم بهم أن تعلموا منهم الغناء والزمر وصناعة الطبول والدفوف.

وكان ذوو السن من رجالهم ونسائهم أشد في ذلك من شبانهم، فكانوا يجتمعون، فيزمرون ويضربون بالطبول والدفوف والبرابط والصنوج، ويصيحون، ويضحكون، حتى سمع أهل الجبل من بني شيث أصواتهم، فاجتمع منهم مائة رجل على أن يهبطوا إلى بني قابيل، فينظروا ما تلك الأصوات، فلما بلغ ذلك يرد أتاهم، فناشدهم الله، وذكرهم

1- تاريخ اليعقوبي.

وصية آبائهم، وحلف عليهم بدم هابيل (كذا)، وقام فيهم أخنوخ بن يرد، فقال: اعلموا أنه من عصى منكم أبانا يرد، ونقض عهود آبائنا، وهبط من جبلنا لم ندعه يصعد أبدًا، فأبوا إلا أن يهبطوا، فلما هبطوا اختلطوا ببنات قابيل. بعد أن ركبوا الفواحش.

فلما دنا موت «يرد» اجتمع إليه بنوه وبنو بنيه أخنوخ، ومتوشلح، ولمك، ونوح، فصلى عليهم، ودعا لهم بالبركة، ونهاهم أن يهبطوا من الجبل المقدس، وقال: إنكم لا محالة تهبطون إلى الأرض السفلى، فأيكم كان آخر هبوطا فليهبط بجسد أبينا آدم، ثم ليجعله وسط الأرض، كما أوصانا، وأمر أخنوخ ابنه ألا يزال يصلي في مغارة الكنز، ثم توفي يوم الجمعة لليلة خلت من آذار، حين غابت الشمس، وكانت حياته تسعمائة سنة واثنتين وستين سنة.

ثم قام بعد يرد أخنوخ بن يرد، فقام بعبادة الله، سبحانه، ولما أتت له خمس وستون سنة ولد له متوشلح، وأخذ بنو شيث ونساؤهم وأبناؤهم في الهبوط، فعظم ذلك على أخنوخ، فدعا ولده متوشلح ولمكا ونوحا، فقال لهم: إني أعلم أن الله معذب هذه الأمة عذابا عظيما ليس فيه رحمة.

وكان أخنوخ أول من خط بالقلم، وهو «إدريس النبي»، فأوصى ولده أن يخلصوا عبادة الله، ويستعملوا الصدق واليقين، ثم رفعه الله بعد أن أتت له ثلاثمائة سنة.

وأضاف اليعقوبي: ثم قام متوشلح بن أخنوخ بعبادة الله تعالى وطاعته، وكان لما أتت عليه مائة وسبع وثمانون سنة، ولد له لمك، فأوحى الله إلى نوح في عصره، وأعلمه أنه باعث الطوفان على الناس، وأمره أن يعمل السفينة من الخشب، ولما كملت لنوح ثلاثمائة سنة وأربع وأربعون سنة تم الألف الثاني.

وتوفي متوشلح في إحدى وعشرين من أيلول، يوم الخميس، وكانت حياته تسعمائة وستين سنة.

فقام «لمك» بعد أبيه بعبادة الله وطاعته، وكان قد ولد له بعد أن أتت عليه مائة واثنتان وثمانون سنة، وكثرت الجبابرة في عصره، وذلك أنه كان لما وقع بنو شيث في بنات قابيل ولدت منهم الجبابرة.

ثم دنا موت «لمك»، فدعا نوحا، وساما، وحاما، ويافثا، ونساءهم، ولم يكن بقي من أولاد شيث في الجبل أحد غيرهم إلا هبطوا إلى بني قابيل، فكانوا ثمانية أنفس، ولم يكن لهم أولاد قبل الطوفان، فصلى عليهم ودعا لهم بالبركة، ثم بكى، وقال لهم: إنه لم يبق من جنسنا أحد إلا هؤلاء الثمانية الأنفس، وأسأل الله الذي خلق آدم وحواء وحدهما، ثم كثر ولدهما، أن ينجيكم من هذا الرجز الذي أُعد للأمة السوء، ويكثر ولدكم، حتى يملأوا الأرض.

ويجعل في ولدكم الملك، وأنا متوفى، ولن يفلت من أهل الرجز غيرك يا نوح، فإذا أنا مت فاحملني، واجعلني في مغارة الكنز، فإذا أراد الله أن تركب السفينة، فاحمل جسد أبينا آدم، فاهبط به معك، ثم اجعله وسط البيت الأعلى من السفينة، ثم كن أنت وبنوك في طرف السفينة الشرقي، ولتكن امرأتك وكنائنك في طرف السفينة الغربي، وليكن جسد آدم بينكم، فلا تجوزوا إلى نسائكم ولا تجز نساؤكم إليكم، ولا تأكلوا ولا تشربوا معهن، ولا تقربوهن، حتى تخرجوا من السفينة، فإذا ذهب الطوفان وخرجتم من السفينة إلى الأرض، فصل أنت عند جسد آدم، ثم أوصِ ساما أكبر بنيك، فليذهب بجسد آدم، حتى يجعله في وسط الأرض، وليجعل معه رجلا من أولاده يقوم عليه، وليكن حبرا لله حياته لا ينكح امرأة، ولا يبني بيتا، ولا يهريق دما، ولا يقرب قربانا من الدواب، ولا الطير، فإن الله مرسل معه ملكا من الملائكة يدله على وسط الأرض ويؤنسه.

وتوفي لمك لسبع عشرة ليلة خلت من آذار يوم الأحد، على تسع ساعات من النهار، وكانت حياته سبعمائة وسبعا وسبعين سنة.

وأوحى الله عز وجل إلى نوح في أيام جده أخنوخ، وهو إدريس النبي، وقبل أن يرفع الله إدريس، وأمره أن ينذر قومه، وينهاهم عن المعاصي التي كانوا يرتكبونها، ويحذرهم العذاب، فأقام على عبادة الله تعالى والدعاء لقومه، وحبس نفسه على عبادة الله تعالى والدعاء لقومه، لا ينكح النساء خمسمائة عام، ثم أوحى الله إليه أن ينكح هيكل بنت ناموسا بن أخنوخ، وأعلمه أنه باعث الطوفان على الأرض، وأمره أن يعمل السفينة التي نجاه الله وأهله فيها، وأن يجعلها ثلاثة بيوت سفلا ووسطا وعلوا، وأمره أن يجعل

طولها ثلاثمائة ذراع بذراع نوح، وعرضها خمسين ذراعا، وسمكها ثلاثين ذراعا، ويصير حواليها رفوف الخشب، ويكون البيت الأسفل للدواب والوحش والسباع، ويكون الأوسط للطير، ويكون الأعلى لنوح وأهل بيته، ويجعل في الأعلى صهاريج الماء، وموضعا للطعام؛ فولد له بعد أن أتت عليه خمسمائة سنة.

ولما فرغ نوح من عمل السفينة، وكان ولد قابيل، ومن اختلط بهم من ولد شيث، إذا رأوه يعمل الفلك سخروا منه، فلما فرغ دعاهم إلى الركوب فيها، وأعلمهم أن الله باعث الطوفان على الأرض كلها حتى يطهرها من أهل المعاصي، فلم يجبه أحد منهم، فصعد هو وولده إلى مغارة الكنز، فاحتملوا جسد آدم، فوضعوه في وسط البيت الأعلى من السفينة، يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من آذار، وأدخل الطير البيت الأوسط، وأدخل الدواب والسباع البيت الأسفل، وأطبقها حين غابت الشمس.

وأرسل الله الماء من السماء، وفجر عيون الأرض، فالتقى الماء على أمر قد قدر، وأخذ الأرض كلها والجبال، وأظلمت الدنيا، وذهب ضوء الشمس والقمر، حتى كان الليل والنهار سواء، وكان الطالع في ذلك الوقت الذي أرسل الله تعالى فيه الماء، فيما يقول أصحاب الحساب: السرطان، والشمس، والقمر، وزحل، وعطارد، والرأس، مجتمعة في آخر دقيقة من الحوت، فاتصل الماء من السماء والأرض أربعين يوما، حتى علا فوق كل جبل خمس عشرة ذراعا، ثم وقف بعد أن لم تبق بقعة من الأرض إلا غمرها الماء وعلاها.

ودارت السفينة الأرض كلها حتى صارت إلى مكة، فطافت حول البيت أسبوعا[1]، ثم انكشف الماء بعد خمسة أشهر، فكان ابتداؤه لسبع عشرة ليلة خلت من أيار إلى ثلاث عشرة ليلة خلت من تشرين الأول.

وروى بعضهم أن نوحا ركب السفينة أول يوم من رجب، واستوت على الجودي في المحرم، فصار أول الشهور بعده، وأهل الكتاب يخالفون في هذا.

١- أي سبعة أشواط.

ولما استوت على الجودي، وهو جبل بناحية الموصل، أمر الله تعالى ماء السماء فرجع من حيث جاء، وأمر الأرض فبلعت ماءها، فأقام نوح بعد وقوف السفينة أربعة أشهر، ثم بعث الغراب ليعرف خبر الماء، فوجد الجيف طافية على الماء، فوقع عليها ولم يرجع، ثم أرسل الحمامة، فجاءت بورقة زيتون، فعلم أن الماء قد ذهب، فخرج لسبع وعشرين من أيار، فكان، بين دخوله السفينة وخروجه، سنة كاملة وعشرة أيام، فلما صار إلى الأرض هو وأهله بنوا مدينة، فسموها ثمانين.

ولما خرج نوح من السفينة ورأى عظام الناس تلوح غمه ذلك وأحزنه، وأوحى الله إليه: إني لن أرسل الطوفان على الأرض بعدها أبدا. ولما خرج نوح من السفينة أقفلها بقفل ودفع المفتاح إلى سام ابنه، ثم زرع نوح، وغرس كرما، وعمر الأرض.

وإن نوحا يوما لنائم إذ انكشف ثوبه، فرأى حام ابنه سوأته، فضحك، وخبر أخويه ساما ويافثا، فأخذا ثوبا حتى أتياه به، ووجوههما مصروفة عنه، فألقيا الثوب عليه، فلما انتبه نوح من نومه، وعلم الخبر، دعا على كنعان بن حام، ولم يدع على حام، فمن ولده القبط والحبشة والهند. (والله أعلم)

وكان كنعان أول من رجع من ولد نوح إلى عمل بني قابيل، فعمل الملاهي والغناء والمزامير والطبول والبرابط والصنوج، وأطاع الشيطان في اللعب والباطل.

وقسم نوح الأرض بين ولده، فجعل لسام وسط الأرض، والحرم وما حوله، واليمن وحضرموت، إلى عمان، إلى البحرين، إلى عالج ويبرين، ووبار، والدو والدهناء، وجعل لحام أرض المغرب والسواحل، فولد كوش ابن حام، وكنعان بن حام النوبة والزنج والحبشة.

ونزل يافث بن نوح ما بين المشرق والمغرب، فولد له جومر، وتوبل، وماش، وماشج، ومأجوج، فولد جومر الصقالبة، وولد توبل برجان، وولد ماش.[1]

1- تاريخ اليعقوبي.

قال ابن الجوزي في موعظته عن قصة هابيل وقابيل:

وأوصى آدم بني هابيل ألا يناكحوا بني قابيل وشاعت المعاصي في أولاد قابيل وهم الذين غرقوا في زمن نوح وانقرض جميع نسل بني آدم سوى نسل شيث وكان شيث وصي آدم وأنزل الله عليه خمسين صحيفة وأقام بمكة يحج ويعتمر وبنى الكعبة بالحجارة والطين فلما احتضر أوصى إلى ابنه أنوش وأنوش أول من غرس النخل وعاش تسعمائة سنة وخمس سنين وولد له قينان فأوصى إليه أنوش وولد لقينان مهلاييل فأوصى إليه وولد لمهلاييل يرد فأوصى إليه وولد ليرد إدريس عليه السلام.

وفي زمن يرد عبدت الأصنام وسبب ذلك ما أنبأنا به عبد الوهاب بن المبارك أنبأنا الحسين بن عبد الجبار أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة أنبأنا محمد بن عمران المرزباني أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد الجوهري حدثنا الحسن بن خليل القتيري حدثنا أبو الحسن علي ابن الصباح أنبأنا هشام بن محمد بن السائب قال أخبرني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان بنو شيث يأتون جسد آدم وهو في مغارة فيعظمونه. (كذا)

فقال رجل من بني قابيل يا بني قابيل إن لبني شيث دوارا يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شيء فنحت لهم صنما وأخبرني أبي قال كان ودّ وسُواعُ ويغوث ويَعوق ونسر قومًا صالحين فماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم فقال رجل من بني قابيل هل لكم يا قوم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم قالوا نعم فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن وجاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول.

ثم جاء القرن الثالث فقالوا ما عظّم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم فعبدوهم وعظموا أمرهم واشتد كفرهم فبعث الله عز وجل إليهم إدريس فدعاهم فلم يزل أمرهم يشتد حتى أرسل الله تعالى نوحًا وجاء الطوفان فأما قابيل فإنه عذب بعد قتله أخاه فروى ابن جريج عن مجاهد قال علِّقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ إلى يوم القيامة ووجهه في الشمس حيثما دارت دارت عليه عليه في الصيف حصيرة من نار وفي الشتاء حصيرة من ثلج.

قال مجاهد وقال عبد الله بن عمرو إنا لنحدث أن ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار العذاب قسمة صحيحة عليه شطر عذابهم ويشهد لهذا القول ما أخبرنا به هبة الله بن محمد بسنده عن مسروق عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

وروى أهل السير أن إبليس أتى قابيل فقال له إنما تقبل قربان أخيك لأنه كان يعبد النار فبنى بيت نار وعبدها واتخذ أولاده المزامير والطبول والمعازف وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ﴾ [المائدة: 32] قال أبو الفتح النحوي يقال فعلت ذلك من أجلك بفتح الهمزة ومن إجلك بكسرها ومن إجلالك ومن جللك ومن جراك ومعنى كتبنا فرضنا ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي قتلها ظلما ولم تقتل نفسا أو فساد في الأرض أي وبغير فساد تستحق به القتل ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأن الناس كلهم من شخص فيتصور من المقتول أن يأتي بمثل ما أتى به آدم ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي استنقذها من هلكة وقد حذرت هذه القصة من الحسد فإنه أحوج قابيل إلى القتل كما أخرج إبليس إلى الكفر والقتل أمر عظيم.

ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء أخبرنا أبو الحصين أنبأنا ابن المذهب حدثني أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا أبو النضر قال أنبأنا إسحاق ابن مسعود عن أبيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لن يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما» انفرد بإخراجه البخاري.

وبالإسناد قال أحمد حدثنا جعفر حدثنا شعبة قال سمعت يحيى المحبر يحدث عن سالم بن أبي الجعد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ثكلته أمه رجل قتل رجلا متعمدا يجيء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو شماله أوداجه تشخب دما في قبل العرش يقول يا رب سل عبدك فيم قتلني أخبرنا علي بن عبد الله أنبأنا ابن النقور أنبأنا أبو حفص الكتاني حدثنا البغوي حدثنا محمد بن عباد المكي حدثنا حاتم -يعني ابن اسماعيل- عن بشير يعني ابن مهاجر عن ابن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال لقتل المؤمن أعظم عند الله تعالى من زوال الدنيا وفي حديث آخر من أعان على

قتل امرئ مسلم ولو بشطر كلمة لقى الله عز وجل مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله.

فإن قيل ما معنى شطر كلمة فالجواب أن يقول (اق) كما قال عليه السلام كفى بالسيف (شا) يعني شاهدا فالحذر الحذر من الذنوب في الجملة وأشدها ما يتعلق بالخلق وأعظمها القتل والخطايا كلها قبيحة والدين النصيحة.

وهكذا نرى أن البشرية التي هي ذرية آدم عليه السلام قد انقسمت إلى قسمين أبناء شيث الذي ورث النبوة من أبيه وأورثها أبناءه بالإضافة إلى أولاد شيث الذي ورث النبوة من أبيه وأورثها أبناءه بالإضافة إلى أولاد آدم وذراريهم الآخرين غير قابيل وهم القسم الذي يمثل الخير والقسم الآخر هو قابيل وذريته الذين ورثوا الشر واتبعوا الشيطان وارتكبوا الموبقات، وعاش الفريقان على الأرض فريق أعلى الجبل والآخر أسفل الجبل أي فريق في الأعلى والآخر في الأسفل كما ذكر اليعقوبي في تاريخه.

ظل الحال هكذا عشرة قرون وهي الفترة ما بين آدم عليه السلام ونوح عليه السلام كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. [1]

وذكر ابن جرير الطبري في تاريخه وغيره أن نوحاً ولد بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة، وعلى تاريخ أهل الكتاب يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة، وروى الحافظ أبو حاتم بن حبان في صحيحه وبسنده عن أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله: أنبي كان آدم؟ قال: نعم مُكَلَّم.

قال: فكم بينه وبين نوح؟

قال: عشرة قرون.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا على شرط مسلم ولم يخرجه.

وأضاف: فإن كان المراد بالقرن مائة سنة فبينهما ألف سنة لامحالة، لكن لا ينفي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة

1- انظر قصص الأنبياء لابن كثير.

لــم يكونوا على الإسلام لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون وزادنا ابن عباس أنهم كانوا على الإسلام.

وعلى هذا نفى ابن كثير زعم أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل وبنيه قد عبدوا النار، ولكن هذا النفي في غير محله حيث يجوز أن يكون ابن عباس قد أخبر عن آدم وبنيه من شيث ولم يذكر قابيل أو تجاهله والله أعلم بالإضافة أنه لم ينفِ أن يكونوا على الطاعة المطلقة لله.

فقد ظهر وبعث وقد عبدت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الكفر والضلالة فكان أول رسول على الأرض وقد أرسل نوح إلى قومه فقط وليس لكل البشرية قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59].

وقال أيضاً: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: 25].

وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 105].

وقال أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: 23].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 14].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: 1][1]

1- اقرأ كتابنا طوفان نوح في القرآن والأساطير، الناشر دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة.

وهكذا نرى أن الآيات تتحدث عن إرسال نوح عليه السلام إلى قومه خاصة وليس إلى عموم من في الأرض، وكل رسول أرسل إلى قومه خاصة إلا النبي الخاتم محمد ﷺ أرسل إلى العالمين إلى العالم بأسره إنسه وجنه.

وبالتالي فإننا نستنتج أنه كان على الأرض أقوام آخرون غير قوم نوح، وبالتالي لم يشملهم الطوفان الذي كان عقاباً لقوم نوح عليه السلام وقد فصلنا ذلك في كتابنا (طوفان نوح عليه السلام).[1]

ولا ننسى أن هناك نبيًّا قد سبق نوح عليه السلام وهو إدريس عليه السلام الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: 56 – 57].

وإدريس هو خنوح المذكور عند أهل الكتاب في كتبهم، وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه أنه أرسل إلى ذرية شيث حين اندمجت مع ذرية قابيل وعصت الله عز وجل. وذكر ابن إسحاق أن إدريس أول من خط بالقلم وأدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثماني سنين، وقد أورد ابن الأثير في الكامل أن إدريس أول من جاهد في سبيل الله وقطع الثياب وخاطها وأول من سبى من ولد قابيل بن آدم فاسترق منهم ووصى ولده «يرد» بما أوصاه آباؤه وأجداده بعضهم بعضاً.

ونعود إلى حديثنا عن قابيل وذريته، فقد اندمجت ذرية قابيل وذرية هابيل وأفسدوا في الأرض وعبدوا الطواغيت والأوثان وارتكبوا الموبقات فأرسل الله إليهم نوحًا عليه السلام الذي ظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يستجب له إلا القليل منهم فأغرقهم الله بالطوفان وقد اختلف أهل العلم هل عمَّ الطوفان الأرض أم هو خاص بقوم نوح عليه السلام والذي نميل إليه أنه خاص بقوم نوح عليه السلام لأنه لا عقاب ولا هلاك لقوم إلا إذا أرسل الله إليهم رسولاً لينذرهم ونوح عليه السلام كان مرسلاً لقومه كما ذكرنا من الآيات القرآنية الدالة على ذلك، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: 15].

1- المرجع السابق.

وقد ذكر أهل الكتاب وغيرهم أن قابيل حين طرد إلى شرق عدن عبدالنار بوحي من الشيطان الذي أقنعه أن هابيل كان يعبد النار ولهذا قبلت النار قربانه، فكان قابيل أول من عبدالنار وذريته على الأرض.

وهناك من يذكر أن قابيل قد أنظره الله مثل إبليس وقالوا إنه المسيح الدجال الذي سيظهر ظهوره الأخير آخر الزمان، وقد قال ابن كثير رحمه الله في تاريخه: والذي رأيته في الكتاب الذي بأيدي أهل الكتاب الذي يزعمون أنه التوراة أن الله عز وجل أنظره.

وأنه سكن في أرض نود في شرق عدن وهم يسمونه «قنين»، وتزوج امرأتين: عدا وصلا، فولدت تمدا ولد اسمه أبل وهو أول من سكن القباب واقتنى المال، وولدت أيضاً توبل وهو أول من أخذ في ضرب الونج والصنج.. إلى آخر كلامه.

وهذا الكلام لابن كثير رحمه الله كما ذكر أنه منقول من أهل الكتاب من كتبهم، فلا يُصدق ولايكذب كما قال هو أيضاً.

وقد ذكر أيضاً عن مجاهد أن قابيل عجل له بالعقوبة يوم قتل أخاه.

المهم أن قابيل ونسله أصبحوا يمثلون الشر على الأرض وكل من سار على هداهم واتبع طريقهم فخرج منهم الفراعنة والجبابرة والطغاة.

فقد كان قابيل أول عاق لوالديه وأول عاصٍ لله وأول من سفك الدماء وأول حاسد وكذلك أبناؤه أول من رقصوا وغنوا وصنعوا أدوات اللهو والطرب وبرعوا في استعمالها وأول من سكنوا القباب وكانوا فراعنة وجبابرة الأرض.

وقد انحصرت النبوة واقتصرت على سلالة آل شيث وكانوا رعاة وهي مهنة عرفها أنبياء الله ومارسوها ولو لفترة من حياتهم.

وكل من يسلك فريق قابيل وذريته وينحى منحاهم يكون منهم ومن هؤلاء بنو إسرائيل قديماً ويهود اليوم حديثاً حتى إن البعض ظن أن إسرائيل ليس هو النبي «يعقوب» عليه السلام ولكنه «قابيل»، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ

ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: 12].

فقد أخذ الله العهد عليهم بأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وأن يؤمنوا برسل الله إليهم وما إلى ذلك من الأعمال الصالحة وإلا سيحيق بهم العذاب وهذا لكافة البشر أيضاً، أي أنه من سلك سبيل آدم وهابيل وشيث والأنبياء فجزاؤه الجنة ومن كفر فعقابه وجزاؤه النار وسوء السبيل في الدنيا، أي بمعنى آخر أن من استن سنة قابيل من البشر فهو في ضلال مبين، وأن دماءه وجيناته مختلطة بقابيل وآل قابيل.

ولا ننسى أن آباء بني إسرائيل الأوائل وهم الأسباط أو الإخوة الاثنا عشر أبناء يعقوب النبي عليه السلام حين أراد عشرة منهم قتل يوسف عليه السلام وهو أخوهم لأبيهم وتشاوروا فيما بينهم غلبت عليهم دماء وجينات النبوة فقالوا لا تقتلوه واطرحوه أرضاً.. ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف: 8 - 10].

وكذلك جاء في سفر التكوين الإصحاح 37: فقال بعضهم لبعض: «ها صاحب الأحلام مقبل نحونا، تعالوا نقتله ونطرحه في بئر ونقول: وحش شرس أكله وترى ماذا تنفع أحلامه، فسمع رأوبين فأنقذه من أيديهم وقال: لا نقتله، ثم قال لهم رأوبين: لاتسفكوا دماً، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا ترفعوا أيديكم عنه».

والقارئ لآيات الله يجد أن آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن بني إسرائيل واليهود وأنهم الأمة الأكثر اتباعاً لسنة قابيل في القتل وما زالوا حتى الآن؛ وكذلك أتباعهم وغيرهم من الأمم، ولهذا جاء ذكر بني إسرائيل بعد ذكر قصة قابيل وهابيل في سورة المائدة حيث قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ

أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: 27].

فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: 32].

وكذلك جاء ذكر النصارى في نفس السورة الآية 14 بعد ذكر بني إسرائيل وأخذ الميثاق عليهم فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: 14].

ثم الآية التالية لها: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: 15 – 16].

واستمرت الآيات تتحدث عن بني إسرائيل وما قالته اليهود والنصارى من أنهم أبناء الله وأحباؤه ثم قصة موسى مع قومه بعد أن خرجوا من مصر ورفضهم دخول الأرض المقدسة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم
بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ
مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ
وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ
ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا
جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ
رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ
غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟
فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى
وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ
يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة: 17 – 26].

وتنتهي الآيات بحكم الله عليهم بالتيه في الأرض أربعين سنة ثم تنتقل الآيات للحديث عن قصة قابيل وهابيل كما ذكرناها من قبل.

وكذلك نجد في سورة المائدة بعد ذلك كله قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: 70].

4 قابيل الحسد القاتل

- الإنسان بين كبر إبليس وحسد قابيل.
- الحسد القاتل في علم النفس والاجتماع والفلسفة.
- فطوعت له نفسه قتل أخيه.
- دوافع الإنسان في القتل.

الإنسان بين كبر إبليس وحسد قابيل

الإنسان المعاصر وريث خطايا القدماء، فقد ورث الحسد عن قابيل الابن الأول لآدم عليه السلام، وورث نسيان آدم أبيه وتأثر بالكبر الذي أصاب عدوه اللدود إبليس حين رفض السجود لآدم عليه السلام كما أمره خالقه عز وجل.

فإبليس عليه اللعنة قد ارتكب أول خطيئة في السماء حين خلق الله آدم عليه السلام وأمر الملائكة ومعهم إبليس بالسجود له سجود تحية وليس سجود عبادة، فتكبر إبليس وعصى أمر خالقه ورفض السجود ظنًّا منه أنه أفضل من آدم، فكان ذلك أول خطيئة ومعصية يشهدها آدم عليه السلام ويحضرها في الملأ الأعلى وكانت تلك المعصية أساسها ودافعها الكبر الممزوج بالحسد.

وقد سجل القرآن الكريم ذلك حين ذكر إبليس في تسع آيات من القرآن هي[1]:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: 34].

وفي سورة الأعراف ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الأعراف: 11].

وفي سورة الحجر ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحجر: 31 - 32].

1- جاء ذكر إبليس في القرآن الكريم ١١ مرة.

وفي سورة الإسراء ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61].

وفي سورة الكهف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

وفي سورة طه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: 116].

وفي سورة ص ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٤) قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص 74 - 75].

والآيات توضح فيما لا يدع مجال للجدل أن إبليس أبى أي رفض الأمر الصادر له بالسجود واستكبر أي تعالى وأظهر ما يكنه في داخله من حقد وحسد لآدم عليه السلام.

ثم يشير الحق جل وعلا إلى أن أتباع إبليس من ذرية آدم هم غير المؤمنين بالله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: 20].

وإذا رجعت إلى قصة آدم وحواء وقابيل وهابيل نجد أن قابيل رفض إطاعة أمر الله وطاعة والده آدم عليه السلام أيا ما كان السبب وأيا ما كان الأمر الصادر له واختار أن يكون من جنود إبليس وأعوانه وذلك حسداً منه لأخيه هابيل الذي تقبل الله منه قربانه دونه.

فما هو الكبر الذي أردى إبليس وجعله من أصحاب الجحيم؟

يقول أهل اللغة أن الكِبْر: العَظَمَة والتَّجَبُّر، كالكِبْرِياء، وقد تَكَبَّرَ واستكْبَرَ وَتَكابَرَ، والتَّكَبُّر والاسْتِكْبار: التَّعَظُّم، والكِبْر بالكسر: اسم من التكبر.

معنى الكِبْر اصطلاحًا: جاء تعريفه في حديث النبي ﷺ فقد قال: «الكِبْر بطر الحق، وغمط الناس».

وقال الزَّبيدي: (الكِبْر: حالةٌ يتخصَّص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرى نفسَه أَكْبَرَ من غيره.

وقيل الكِبْر هو: (استعظام الإنسان نفسه، واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع على من يجب التواضع له).

والكبر داء وذلك الداء يجعل المرء يعيش الوهم بكل معانيه، يحسب بسببه المرء نفسه في أعين الناس عظيماً، وهو عندهم حقير ذليل لكبره، وهو داء له آثاره الوخيمة المدمِّرة للإنسان والمجتمع أيضاً.

قال الله تعالى عن فرعون وملئه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس». [1]

ومن آثار الكبر احتقار الناس وانتقاصهم، وقد قال الله تعالى عن استعلاء فرعون وقومه على موسى عليه السلام وبني إسرائيل: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المؤمنون: 45 – 47].

والجزاء من جنس العمل، فإن المتكبر المحتقر للناس يحشره الله تعالى يوم القيامة تحت أقدامهم، فهو أقل قدراً منهم، بل هو تحت أرجلهم، تحقيراً له جزاءً على استعلائه وتكبره، قال ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال». [2]

1- رواه مسلم في صحيحه.
2- رواه الترمذي.

ونعود إلى الحسد القاتل فقد كان الحسد بطل قصة قابيل وهابيل وهذا هو المفهوم من سياق القصة كما ذكرها القرآن الكريم في سورة المائدة.

والحسد: هو تمني زوال النعمة عن صاحبها، لما يلحق من المشقة في نيله لها، وهو خلاف الغبطة، لأن الغبطة تمني مثل تلك النعمة، لأجل السرور بها لصاحبها، ولهذا صار الحسد مذموماً، والغبطة غير مذمومة.

وكما أدى الكبر إلى معصية إبليس في السماء وطرده منها ومن الجنة وأصبح مطروداً من رحمة الله، فعل الحسد بقابيل حيث طُرد أيضاً من العيش مع أبيه ونزل عليه غضب الله وعلى من تبعه من ذريته، وهكذا خلق الحسد والكبر التقوى والطاعة في نفس كل منهما.

ومن مساوئ الحسد ضياع الطاقات الاجتماعية والشخصية، وذلك لأن الحسود سوف يصرف كل طاقاته في سبيل هدم وتحطيم ما هو قائم، دون أن يصرف جهده في البناء.

إن الحسد يعد من الناحية المعنوية من علائم ضعف الشخصية وعقدة الحقارة، ومن دلائل الجهل وقصر النظر وقلة الإيمان، لأن الحاسد يرى نفسه أعجز وأقل من أن يبلغ ما بلغه المحسود من المكانة أو أعلى من ذلك، ولهذا يسعى الحاسد إلى أن يرجع المحسود إلى الوراء، هذا مضافاً إلى أنه بعمله ما هو إلا اعتراض على أمر الله وأن على الإنسان المؤمن أن يتقبل أوامر الله وحكمه وتلك طبيعة أهل التقوى.

فقد واجه هابيل (المقتول) أخاه قابيل (القاتل) بالحقيقة، وهي أن السبب في قبول قربانه دونه هو أنه قدّم ماله خالصاً طاهراً لله عز وجل، لم يكن في ماله شائبة من حرام أو غيره ثم قال لأخيه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وكذلك قد يأتي الحسد من دون قصد مثل أن تتمنى أن تكون مثل شخص معين وهي أيضا تعرف بالعين وكما هو المعروف بأن العين قد تذهب بك إلى القبر ولتجنب شر العين هناك الرقية الشرعية يمكنك ان ترقي نفسك قبل ذهابك إلى تجمعات بشرية

أو إلى أي مكان قد تصادف بشرًا وتوكل على الله وحده لا شريك له هو أحد أهم الوقاية من جميع الأمور.

والحسد حرام لقول رسول الله في الصحيحين عن أنس عن النبي أنه قال: «لا تحاسدوا ولاتناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا». وعن أبي هريرة قال إن النبي ﷺ قال: «لا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد» وقوله: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب أو قال العشب».

وللحسد مراتب ودرجات منها:

أن يتمنى الحاسد زوال النعمة من المحسود وأن تكون له.

أو أن يتمنى زوال النعمة ويحب ذلك وإن كانت لا تنتقل إليه.

أو أن يتمنى زوال النعمة عن الغير بغضا لذلك الشخص لسبب شرعي كأن يكون ظالما.

وأيضاً ألا يتمنى زوال النعمة عن المحسود ولكن يتمنى لنفسه مثلها، وإن لم يحصل له مثلها تمنى زوالها عن المحسود حتى يتساويا ولا يفضله صاحبه.

أن يحب ويتمنى لنفسه مثلها فإن لم يحصل له مثلها فلا يحب زوالها عن مثله وهذا لا بأس به.

والأسباب التي تؤدي إلى الحسد، العداوة والبغضاء والحقد وهذا السبب من الحاسد، وكذلك التعزز والترفع، هذا السبب من الحاسد، حب الرئاسة وطلب الجاه لنفسه، هذا السبب من الحاسد أيضاً، وكذلك ظهور الفضل والنعمة على المحسود، فيغيظ ذلك الحاسد، وكذلك الكبر كما حدث مع إبليس تجاه آدم عليه السلام وكذلك شدة البغي وكثرة التطاول على العباد من الشخص المحسود تثير الكراهية في قلوب الحاسدين له.

ومن آثار الحاسد وأضراره على الفرد والمجتمع انتفاء الإيمان وشيوع الكراهية بين الناس وبالتالي يحل سخط الله وعقابه على المجتمع.

الحسد القاتل في علم النفس والفلسفة والاجتماع

الحسد كما ذكرنا هو تمني زوال النعمة عن الغير حقداً وغيرة من الحاسد وهو غير الغبطة، ويأتي الحسد غالباً مصحوباً بالعداوة مما يجعله حسداً قاتلاً مدمراً لأي مجتمع، فهو يصيب الفرد بالغل والحقد.

فالحسد في علم النفس مؤشر لاضطراب في الشخصية وهو محصلة تحكم العديد من الانفعالات السلبية مثل الغضب والخوف والكراهية وعدم القدرة على المواجهة والشعور بالضعف والعجز وكذلك عدم الثقة بالنفس.

والحسد على المستوى الاجتماعي هو تعبير ذاتي فردي على اختلال اجتماعي للتوازن في العلاقة بين الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه، لأن الأصل في العلاقات الاجتماعية هو الحب المتبادل.

والحسد عند الفلاسفة هو انفعال الحاسد سلباً مما أصاب غيره من امتيازات يرى أنه أحق بها في حين يرى فريق من الفلاسفة الغربيين وهو تيار كبير يمتد من طائفة السوفسطائية إلى هيرقليطس إلى فردريك هيجل وكارل ماركس ونيتشه وجان بول سارتر أنه يجعل العلاقة الأساسية بين البشر هي علاقة صراع.

فالتيار الأول ينظر إلى الحسد كانفعال وسلوك سلبى يقول (أرنست هيجل) (الحسد أغبى الرذائل إطلاقًا فإنه لا يعود على صاحبه بأية فائدة)، ويقول إيرل أوف روشستر (الحسد عاطفة مفعمة بالجبن والعار بحيث لا يجرؤ إنسان على الاعتراف بها)، لكن التيار الثانى ينظر في كثير من الأحيان إلى الحسد كانفعال لا يخلو من قيمة إيجابية، ففى بعض الكتابات الماركسية نجد تحليلًا إيجابيًّا لمفهوم الحقد الطبقي باعتباره تعبيرًا عن الصراع الطبقي كمحرِّك للتاريخ استنادا إلى المادية التاريخية التي هي محصلة تطبيق

المادية الجدلية على التاريخ، ومضمونها أنه داخل المجتمع يتطور أسلوب الإنتاج بفعل التناقض بين أدوات الإنتاج وعلاقات الإنتاج بصورة صراع طبقي بين الذين يعبرون عن الأولى، والذين يعبرون عن الثانية. وكل هذا التطور في البنية التحتية ينعكس على البنية الفوقية وهي القانون والأخلاق والدين والفن.

أما في الإسلام فالحسد هو سلوك انفعالي وسلوك سلبي يرفضه الإسلام، لأن الإسلام يأمر بالتعاون على البر والتقوى، فالمجتمع بالنسبة للفرد بمثابة الكل للجزء لا يلغيه بل يحدده فيكمله ويغنيه، يقول الرسول ﷺ «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، فهو يرفض الفردية التي تؤكد على وجود الفرد لتلغى المجتمع يقول الرسول ﷺ «إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية»، كما يرفض الجماعية التي تؤكد على الجماعة وتلغي الوجود الفردي كما كان سائدا في المجتمع الجاهلي القبلي العربي يقول الرسول ﷺ «لايكن أحدكم إمَّعَة، يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساؤوا أسأت، بل وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم».

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: 103] وقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2] وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71]، وحذر من الفرقة والصراع ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 91].

وأشار القرآن أيضاً أن الحسد مذموم ومرفوض فقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 109] ويقول تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 54]، ويقول تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: 5].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» رواه مسلم.

وقال أيضاً ﷺ: «لا يجتمع في جوف عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد"؛ وقال ﷺ: «إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

التكييف القانوني لجريمة قتل قابيل لهابيل

يقول أهل القانون - وأنا منهم - إن التكييف القانوني للجريمة التي قام به قابيل من قتل أخيه هابيل أيا ما كان السبب هي جريمة قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد، وهذا واضح من سياق آيات سورة المائدة حيث حملت الآيات إصرار وتعمد قابيل قتل أخيه رغم إظهار هابيل نيته تجاه أخيه بعدم مقابلة القتل حتى بالدفاع عن النفس ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: 28].

فقد أصر قابيل رغم ذلك على قتل أخيه وترصد له وخطط لقتله وهو في حالة لا يستطيع فيها الدفاع عن نفسه فقد قيل إنه كان نائماً وألقى عليه بحجر كبير فقتله.

وذكر أهل التفاسير أن ندم قابيل بعد قتله أخاه لم يكن ندماً على قتله إياه ولكن كان ندماً على عدم معرفته كيفية دفن أخيه حتى بعث الله غراباً يعلمه ذلك فأصبح من النادمين الخاسرين.

فحين طوعت له نفسه قتل أخيه أصبح من الخاسرين ثم حين فشل في مواراة جثة أخيه أصبح من النادمين.

قال تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١ ﴾ [المائدة: 30 - 31].

فطوعت له نفسه قتل أخيه:

قد يكون قد بدء الأمر بالوسوسة وحث قابيل على كراهية أخيه والاعتراض على

أوامر آدم عليه السلام ورفض أوامر الله التي ظهرت في قبول قربان هابيل ورفض قربان قابيل، لكن الذي طوع له قتل أخيه هي النفس البشرية التي تعيش داخل الجسد لقوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: 30].

فما هي تلك النفس المحرضة إيجابيًّا على القتل؟

وهل النفس البشرية هي الروح الإنسانية أم هي شيء آخر مختلف؟

أسئلة كثيرة سوف نحاول إلقاء الضوء عليها لأن الأمر يحتاج إلى تفصيل بل وإلى كتاب مستقل.

قال ابن القيم رحمه الله: سبحان الله في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل وعتو عاد وطغيان ثمود، وجرأة نمرود واستطالة فرعون، وبغي قارون وقحة هامان.

فالنفس البشرية ليست هي الروح البشرية، ولهذا قال أهل العلم إن النفس أنواع كما جاء ذكرها في القرآن الكريم:

1- **النفس المطمئنة:** هي مستقر النور والايمان وهى الأحب إلى الله فهي نفس خاشعة محبة لله ساعية لرضاه وحسن طاعته متوكلة عليه عز وجل بالقلب والعمل مخلصة لله دون سواه.

2- **النفس الأمارة بالسوء:** هي مستقر الشرور وهى شيطان النفس ومستقر كل قبح ورذيلة والدافعة لارتكاب الآثام والمعاصى كلها وهى المساعد الرئيسى للشيطان في دفع الإنسان لارتكاب المعاصى وكل ما يغضب الرحمن ويثير سخطه.

3- **النفس اللوامة:** هي النفس التي تكثر من اللوم لصاحبها وعتابه في كل صغيرة وكبيرة بما يرضى الله وبها تكون محاسبة النفس دائما، معنى ذلك أن صاحب هذه النفس إذا وقع في الرذائل فتوبخه هذه النفس، وتندم وتستشعر الندم والتقصير في حق الله، وتحث صاحبها على تجديد التوبة والاستغفار والبعد عن الآثام والمعاصى في كل وقت وحين.

وفي معاجم وقواميس اللغة العربية فجاء في مختار الصحاح، النَّفْسُ الروح يقال خرجت نفسه والنَّفْسُ الدم يقال سالت نفسه، وفي الحديث ما ليس له نفس سائلة فإنه لا ينجس الماء إذا مات فيه والنَّفْسُ الجسد ويقولون ثلاثة أَنْفُسٍ فيذكِّرونه لأنهم يريدون به الإنسان ونَفْسُ الشيء عينه.

وفي الحديث ما من نفس منفوسة إلا وقد كُتِب مكانها من الجنة والنار.

وفي لسان العرب يعرف هنا النفس بأنها الروح ويضيف أنها أيضا الدم، بينما يرد الحديث النبوي الشريف ليؤكد حقيقة تعلق مسألة النفس بالإنسان والعقاب والثواب وورد في لسان العرب «وقيل: نَفْسَكَ فطَهِّر، والعرب تَكْني بالثِّيابِ عن النَّفْسِ» والمغزى واضح بذاته، ومجمل المعاجم اللغوية العربية تورد هذه المادة ومشتقاتها مثل نفس ونفيس ونافس ونفساء ومنفوس مدعمة بأسانيدها ولا تختلف إلا في مسألة هل النفس هي الروح أم لا وهل هي مادة لذاتها أم غير ذلك، وننوه إلى المعنى الأخير باعتبار الثياب كناية عن النفس، وأثبتت الآراء أيضا قولهم (إن النفس هي النفس الداخل والخارج، وقيل الحياة، وقيل جسم لطيف يحل في جميع البدن، وقيل الدم، وقيل هي عرض حتى قيل إن الأقوال فيها بلغت مائة).

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «الروح يطلق لمعنيين، أحدهما جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى جميع أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس منه على أعضائه، يضاهي فيضان النور، من السراج الذي يدار في زوايا البيت فإنه لا ينتهي إلى جزء من البيت، إلا ويستنير به، فالحياة مثالها النور الحاصل في الحيطان، والروح مثاله السراج، وسريان الروح وحركته في الباطن، مثال حركة السراج في زوايا البيت، يتحرك بحركته، والأطباء إذا أطلقوا الروح أرادوا هذا، وهو بخار لطيف نضجته حرارة القلب، وليس من غرض أطباء الدين شرحه».

وجاء في بدائع الفوائد: «وفرقة نكرت وقالت لا وجود لنفس الآدمي سوى

هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط، والفرقة الثانية أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن، والفرقة الثالثة بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة،المفارقة للبدن، والفرقة الرابعة وهم أتباع الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن..».

ويمكن القول بأن النفس البشرية عبارة عن كيان أثيري مادي (كهرومغناطيسي) موجود داخل الإنسان وفق نمط معين له امتداد بأعضاء الجسم الداخلية، وله تمركز وسط الصدر عند القلب و يؤثر ويتأثر بكل ما حوله في الكون بواسطة المجال الأثيري.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴾ [الأنعام: 98].

قال عبد الله بن مسعود فلها مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها.

وعن سعيد بن جبير في قوله فمستقر ومستودع قال مستودعون ما كانوا في أصلاب الرجال فإذا قروا في أرحام النساء أو على ظهر الأرض فقد استقروا.

فالنفس البشرية تؤثر في مزاج الإنسان وأيضاً في صحته، بل هي أيضاً تصاب بالأمراض التي تُعرف بالأمراض النفسية فالنفس جزء أصيل من أجزاء مركب الإنسان، كما يفسر القرطبي بأن الله عز وجل «يقصد بالتسوية أي سويت خلقه وصورته ونفخت فيه من روحي، النفخ أجراء الريح في الشيء»، وتحدد النصوص القرآنية طريقتين لتسوية الأنفس، إحداهما ما يرد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: 29] أي إذا سويته بيدي وهذه طريقة لتسوية الأنفس، والأخرى في قوله ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس: 7 - 8].

إذاً فالنفس التي سولت لقابيل وطوعت له قتل أخيه هابيل هي النفس الأمارة بالسوء.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [سورة يوسف: 53].

ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية إقرارها فقالت وما أبرئ نفسي، وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب من أن تبرئة نفسها من هذا الذنب العظيم ادعاء بأن نفسها بريئة براءة عامة فقالت وما أبرئ نفسي أي ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم؛ لأن النفس أمارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء، ولكنه لم يقع.

وجملة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ تعليل لجملة ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾، أي لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب الذنب؛ لأن النفوس كثيرة الأمر بالسوء.

والاستثناء في ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ استثناء من عموم الأزمان، أي أزمان وقوع السوء، بناء على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كل الأوقات إلا وقت رحمة الله عبده، أي رحمته بأن يقيض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيض حائلا بينه وبين فعل السوء، كما جعل إباية يوسف عليه السلام من إجابتها إلى ما دعته إليه حائلا بينها وبين التورط في هذا الإثم، وذلك لطف من الله بهما.

ولاشك أن النفس الأمارة بالسوء هي العدو الحقيقي للإنسان مثل القرين الشيطاني الموجود مع كل إنسان.[1]

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 235].

فالنفس والشيطان رفيقان حميمان لا يفترقان إلا عند الموت.

1- اقرأ كتابنا القرين العدو الخفي للإنسان، الناشر: دار الكتاب العربي، دمشق/ القاهرة.

ذكر دوافع الإنسان في القتل

قال تعالى عن جزاء قتل الإنسان لأخيه الإنسان متعمداً كما فعل قابيل:

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء: 93].

هكذا يكون جزاء القاتل المتعمد لأخيه الإنسان المسالم المؤمن جعل جزاءه هو جزاء الكافرين خالداً في النار، ولا شك في أن ارتكاب أي ذنب يكون استجابة لإحدى الرغبات النفسية، وهي مختلفة طبعا، ولكل منها تعلّق بقسم من الأخلاق الفردية والاجتماعية للإنسان.

والقارئ للقرآن يجد أن دوافع القتل في القرآن تنحصر في النقاط التالية:

1- **الحسد:**

وهو أول دوافع القتل وبسبب الحسد قتل قابيل هابيل وقد اعتبر القرآن الحسد عاملاً لأول قتل وقع في الأرض حيث يقول تعالى في سورة المائدة:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: 27].

يستفاد من هذه الآيات بوضوح أنّ الحسد كان المنشأ لأول قتل وقع على الأرض على يد قابيل، كما يستفاد أن الأخلاق الفردية ذات تأثير على الأحداث الاجتماعية، وعليه لا ينبغي فصل الشؤون الاجتماعية عن القضايا الفردية بنحو كامل.

2- **التعصب الديني:**

فالتعصب يورث الكفر ويؤدي إلى قتل الناس بعضهم بعضاً، حتى ولو كانت تلك العقيدة باطلة وغير صحيحة، وكان الكفار يتعصبون لدين آبائهم من عبادة الأصنام

والأوثان ويرفضون عبادة الله الواحد الأحد ويقولون لهم: ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود: 87].

3- النساء:

وهي من الفتن التي تؤدي إلى القتل بعد التنافس على امتلاكها.

4- المال:

وهو أيضاً من العوامل التي يؤدي التنافس عليه إلى الوقوع في قتل بعضهم بعضا.

5- الخوف من الفقر:

فالفقر يولد الجوع وكان ذلك أكثر الدوافع للقتل حتى إنه في الجاهلية كان الآباء يقتلون الأبناء خوفاً من الفقر ونهى الله عن ذلك في القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [الأنعام: 151].

6- إنجاب البنات:

وكان إنجاب البنات في الجاهلية دافعاً للعربي أن يقتل ابنته وجاء الإسلام وألغى هذه العادة وحرمها، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل: 58 – 59].

5 قابيل وهابيل في الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى

- قصة قابيل وهابيل في سفر التكوين في العهد القديم في الإصحاح الرابع.
- خطيئة آدم عليه السلام والمسيح المخلص في العهد الجديد وتوارث ذرية آدم الخطيئة حسب المفهوم المسيحي.
- قابيل وإسرائيل والمسيح الدجال.

ذكر قصة قابيل وهابيل
في سفر التكوين من العهد القديم

جاء ذكر آدم وحواء وابنيهما قابيل وهابيل في العهد القديم عند اليهود في سفر التكوين، وعرف قابيل باسم «قايين»، وإن قايين كان يعمل في الزراعة وأخاه «هابيل» يعمل في رعي الماشية، وأشارت التوراة إلى أن قابيل وهابيل قدما قربانيْن إلى الله دون ذكر سبب لتقديم القربان، إلا أن الرب قبل قربان هابيل ولم يقبل قربان قابيل مما جعله مغتاظاً وكلم أخاه وقام بقتله، مما أدى ذلك إلى أن آدم عليه السلام لعن قابيل وطرده، وأن الرب جعل لقايين علامة حتى لا يقتله أحد، وهرب قايين إلى «نود» شرق عدن وسكنها وصارت له ذرية وأن أحد أحفاده وهو «لامك» وكان أعمى قتله.

وإليك نص الإصحاح الرابع من سفر التكوين الذي ذكر قصة قابيل مع أخيه هابيل:

«1 وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين وقالت اقتنيت رجلا من عند الرب، 2 ثم عادت فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملا في الأرض، 3 وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب، 4 وقدم هابيل أيضًا من أبكار غنمه ومن سمانها فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، 5 ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر فاغتاظ قايين جدًّا وسقط وجهه، 6 فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك، 7 إن أحسنت أفلا رفع وأن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وأنت تسود عليها، 8 وكلم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله، 9 فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم أحارس أنا لأخي، 10 فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض، 11 فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك، 12 متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها تائها وهاربا تكون في الأرض، 13 فقال قايين للرب ذنبي أعظم من

أن يحتمل 14 إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائها وهاربا في الأرض فيكون كل من وجدني يقتلني، 15 فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده، 16 فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن، 17 وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك وكان يبني مدينة فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك، 18وولد لحنوك عيراد وعيراد ولد محويائيل ومحويائيل ولد متوشائيل ومتوشائيل ولد لامك، 19 واتخذ «لامك» لنفسه امرأتين اسم الواحدة «عادة» واسم الأخرى «صلة»، 20 فولدت «عادة» «يابال» الذي كان أبا لساكني الخيام ورعاة المواشي، 21 واسم أخيه «يوبال» الذي كان ابا لكل ضارب بالعود والمزمار، 22 «وصلة» أيضًا ولدت «توبال قايين» الضارب كل آلة من نحاس وحديد وأخت توبال قايين نعمة، 23 وقال لامك لامرأتيه عادة وصلة اسمعا قولي يا مراتي لامك وأصغيا لكلامي فإني قتلت رجلا لجرحي وفتى لشدخي، 24 أنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين، 25 وعرف آدم امرأته أيضًا فولدت ابنا ودعت اسمه شيثا قائلة لأن الله قد وضع لي نسلا آخر عوضا عن هابيل لأن قايين كان قد قتله، 26 ولشيث أيضًا ولد ابن فدعا اسمه أنوش حينئذ ابتدئ أن يدعى باسم الرب». (سفر التكوين: 1-26).

ويرى مفسرو العهد القديم من النصارى أن هابيل يمثل السيد المسيح آدم الثاني والبكر الحقيقي للبشرية، وقايين يرمز لجماعة اليهود الذين حملوا بكورية معرفة الله لكنهم جهدوا الإيمان بالمخلص وتلطخ مجمعهم بسفك دم البريء، ليأتي هابيل ممثلاً لكنيسة العهد الجديد تضم أعضاء من الأمم فتحتمل البكورية الروحية وتحسب كنيسة أبكار خلال التصاقهم أو اتحادها بالرب البكر؛ وأن عمل هابيل الرعاية وهذه تشير لمن يدير ويقود طاقات جسده «الغنم» أما عمل قابيل فهو الزراعة في الأرض وهذا يشير لمن وجه عنايته واهتمامه الزمن والوقت.

ويرى مفسرو العهد القديم أن ما قدمه «قايين» من قربان لله كان لا يصلح لأنه قدم من ثمار الأرض وهذا القربان غير قادر على المصالحة بين الله والإنسان وأن ما قدمه

هابيل من ذبيحة دموية تحمل رمزاً للسيد المسيح الذبيحة الحقيقية الذي صالح البشرية مع الرب من وجهة نظرهم (النصارى).

فهم يرون (أي النصارى) أن الرب لم يتب على آدم عليه السلام حين عصاه في الجنة واتبع إبليس وظلت خطيته معه ولحقت بذريته من بعده حتى جاء السيد المسيح وقتل من أجل خلاص البشرية، ذلك بزعمهم، وقالوا إن قايين وهابيل ولدا بطبيعة تميل إلى الخطية وعندما أرادا أن يتقربا إلى الله قدم كل واحد منهما قرباناً، فنظر الرب إلى قربان هابيل ولم ينظر إلى قربان قابيل، فغفر لهابيل ولم يغفر لقابيل خطاياه، والسبب أن هابيل أحضر القربان الذي كان يتطلبه الرب منه ولكن قابيل أحضر شيئاً آخر من عندياته أي أراد أن يقدم قرباناً خاصة بشريعته هو وليس بشريعة الله، فقد جاء في نص آخر عندهم:

«بالإيمان قدم هابيل لله ذبيحة أفضل من قايين، فيه شهد له أنه بار، أن شهد الله لقرابينه» (عبرانيين 11: 4).

أي أن هابيل آمن بالله وقابيل لم يؤمن به، فالإيمان بالله هو الثقة فيه والطاعة لكلمته؛ وهكذا فإن غفران الخطايا لا يقوم على خطة الإنسان بل على خطة الله، وقالوا إن الله فتح باب الغفران للإنسان الأول بأن يقدم حيوانًا بلا عيب ويذبحه، فالحيوان يموت عوضاً وبديلاً عن الإنسان الخاطئ، إلا أن «قايين» تجاهل ذلك وأراد الغفران حسب شريعته هو حيث تقدم بنهج آخر وديانة من صنعه هو، فكان «قايين» أول من خلق ديانة وشريعة كاذبة فقدم قربانًا مما كان يقوم بزراعته أي من نتاج الأرض التي لعنها الله كما يزعمون.

ونرى أن عقيدتهم تدور حول الخطيئة الأصلية التي ارتكبها آدم عليه السلام في الجنة بالأكل من الشجرة والتي قالوا إنها شجرة المعرفة بعد أن استمع لوسوسة الشيطان فأصبح آدم وذريته أسيراً لتلك الخطيئة حتى خلصه منها السيد المسيح كما يزعمون، أما عندنا فإن آدم عليه السلام وزوجه حواء عليهما السلام قد تابا من الخطيئة فور ارتكابها كما ذكر ذلك الحق جل وعلا في القرآن الكريم ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

وتعبير الخطيئة الأصلية لآدم عليه السلام عند النصارى هي التهام آدم لثمرة شجرة معرفة الخير والشر ولديهم ثلاث وجهات نظر رئيسية لتناولها وهي:

1- **نظرة الأوقيانوسية:** لم تؤثر خطيئة آدم على أرواح ذريته، هذا بغض النظر عن المثل الخاطئ الذي قدمه للآخرين الذين قاموا باتباعه وارتكاب الخطيئة. ووفقاً لهذا الرأي، للإنسان القدرة على التغلب على الخطيئة إن اختار ذلك. وهذا التعليم يتناقض مع عدد من الآيات الكتابية التي تشير إلى أن الإنسان عبد للخطيئة (بدون التدخل الإلهي) وأن الأعمال الجيدة لا تجدي في الحصول على رضاء الله (أفسس 1:2-2 ومتى 18:15-19 ورومية 23:7 وعبرانيين 1:6 و14:9).

2- **النظرة الأرمنية:** وهذا الرأي يرجح أن خطيئة آدم تسببت في توارث الجنس البشري الميل للخطيئة وغالباً ما يشار لذلك «بالطبيعة الخاطئة». وهذه الطبيعة تتسبب في أننا نلجأ للخطيئة كما تلجأ القطة للمواء كجزء من طبيعتها. ووفقاً لهذه النظرة، فإن الإنسان لا يستطيع التوقف عن ارتكاب الخطيئة بمفرده ولذا فالله يمنح نعمة عامة للجميع ليساعدهم على التغلب على الخطيئة. وتبعاً لهذا الرأي، فإننا لن نتعرض للمساءلة عن خطيئة آدم، بل سنحاكم على الخطايا التي ارتكبناها فقط. وهذا الرأي أيضاً يتعارض مع الآيات الكتابية «..... من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» الموجودة في رومية 12:5 وأيضاً يتجاهل أن جميع البشر مستحقين أجرة الخطيئة (الموت) حتى وإن لم يخطئوا بنفس طريقة إخطاء آدم (كورنثوس الأولى 22:15، ورومية 14:5-15 و18). والتعليم الموجود عن النعمة في الكتاب المقدس.

3- **النظرة الكالفينية:** أن خطيئة آدم لم تسبب فقط طبيعتنا الخاطئة، بل تسببت في شعورنا بالذنب أمام الله حيث إننا نستحق العقاب. وميلادنا

بالخطيئة الأصلية (مزمور 5:51) يتسبب في توارثنا لطبيعة خاطئة جدًّا حتى أن أرميا وصف القلب البشري «القلب أخدع من كل شيء وهو نجيس من يعرفه» 9:17. ولا يعتبر آدم الخاطئ نتيجة لما فعله بل إن خطأه وعقابه (الموت) ينطبق علينا كلنا (رومية 12:5 و19). وهناك رأيان يفسران لما ينبغي أن يرى الله خطيئة آدم كخطيئتنا جميعاً. الرأي الأول، يرى أن الجنس البشري كان بداخل آدم في صورة بذور، ولهذا فعندما أخطأ آدم، كلنا أخطأنا معه. وهذا يطابق ما هو موجود في سفر اللاويين في الكتاب المقدس (نسل إبراهيم) وقصة دفع العشور قبل ميلاد لاوين بمئات السنين (تكوين 20:14 وعبرانيين 7:4-9). والرأي الآخر، يرى أن آدم كان يمثلنا وهكذا عندما أخطأ، نعتبر كلنا مذنبين.

ويرى المذهب الكالفني أن الإنسان غير قادر على التغلب على الخطيئة بدون معونة الروح القدس والذي يعمل فقط عند توبة الإنسان عن الخطيئة واعتماده بصورة كلية على المسيح وفدائه وموته على الصليب. وتواجه هذا الرأي مشكلة واحدة،وهي تفسير كيف يمكن للأطفال والغير قادرين على اتخاذ القرارات قبول الخلاص (صموئيل الثانية 23:12؛ ومتى 3:18؛ 14:19)، حيث إنهم توارثوا خطيئة آدم. ويقول ميلارد ايريكسون مؤلف كتاب «اللاهوت المسيحي» في هذا الشأن، «هناك رأي.... يحفظ التوازن بين قبولنا لعمل المسيح على الصليب ولخطيئة آدم (رومية 12:5-21) وهو يشير بصورة واضحة لمسؤوليتنا عن الخطيئة الأولى. فنحن نصبح مسؤولين ومذنبين عندما نقبل ونرضى عن طبيعتنا الفاسدة. ويأتي الوقت في حياة كل منا حيث ندرك ميولنا لفعل الخطيئة. وفي هذا الوقت يمكننا أن نمقت الطبيعة الخاطئة التي كانت هناك طوال الوقت، وبالتالي نتوب عنها. أو على الأقل نرفض تكويننا المذنب. ولكن إن كنا نرضي عن طبيعتنا الخاطئة فنحن نتعامل معها كشيء جيد. وإن أصبحنا في وضع موافقة ضمنية على الفساد، فإننا نوافق بل نعضد ما تم في جنة عدن في الماضي. ونصبح مذنبين بهذه الخطيئة من غير أن نقوم بارتكابها بأنفسنا».

ونظرة المدرسة الكالفينية تتماشى بقدر كبير مع تعاليم الكتاب المقدس بشأن «الخطيئة

الأصلية»، حيث يمكن تعريفها «بالخطيئة والذنب الذي نحمله أمام الله كنتيجة مباشرة لخطيئة آدم في جنة عدن».[1]

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هل توارث ذرية آدم جميعاً الخطيئة التي ارتكبها آدم وحواء في الجنة؟ والجواب حسب الاعتقاد المسيحي نجد أن ذرية آدم وحواء قد توارثوا الخطيئة.

ولكن من آدم تحديداً. وتعرف الخطيئة في الكتاب المقدس بمخالفة قانون الله (يوحنا الأولى 4:3) والتمرد على الله (تثنية 18:1). وبدأت الخطيئة مع لوسيفر «زهرة بنت الصبح» وأقوى الملائكة حيث أراد أن يصير مثل العلي. (أشعياء 12:14-15). وتم إعادة تسميته بإبليس، ومن خلاله تعرض الجنس البشري للخطيئة في جنة عدن. حيث قام إبليس بإغواء كل من آدم وحواء بأنهما سيصبحان «مثل الله».

ويصف سفر التكوين والإصحاح الثالث تمردهم ضد الله وعصيانهم لوصاياه. ومنذ ذلك الوقت تم توارث الخطيئة من جيل لآخر إلى أن توارثنا نحن بني آدم نفس الخطيئة. ويخبرنا رومية 12:5 أنه من خلال آدم، دخلت الخطيئة والموت العالم، وتم توارث الإنسان الموت «لأن أجرة الخطيئة هي موت» (رومية 23:6). وهذه هي الحالة المعروفة بالخطيئة المتوارثة. فكما نتوارث صفاتنا الجسدية من والدينا فإننا توارثنا طبيعتنا الخاطئة من أبينا آدم.

وقالوا: ولقد صنع الله آدم وحواء على صورته كشبهه (تكوين 26:1-27). ونتيجة لذلك فإن كل البشر خلقوا على صورة وشبه الله (تكوين 6:9). ولكننا أيضاً على صورة وشبه آدم (تكوين 3:5). وعندما سقط آدم في الخطيئة، تسبب ذلك في أن كل واحد من ذريته أصبح «مصابًا» بالخطيئة. ولقد عبر داوود عن أسفه لتلك الحقيقة في واحد من المزامير بقوله: «هأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بى أمي» (مزمور 5:51). وهذا لا يعني بأن أمه قد حملت به بصورة غير شرعية، بل أنه توارث الطبيعة الخاطئة من والديه،

1- www.gotquestions.org/arabixc

وأنهما توارثا الطبيعة الخاطئة من والديهما، وهكذا. فلقد ورث داوود الخطيئة من والديه كما توارثنا نحن الخطيئة بالمثل. وحتى إن حاولنا أن نعيش بصورة مرضية أمام الله، فنحن مازلنا خطاة بسبب ما ورثناه من الخطيئة.

وكوننا مولودين بالخطيئة يجعلنا جميعاً نخطئ. فلاحظ التطور المذكور في رومية 12:5: فقد دخلت الخطيئة العالم من خلال آدم، والموت يتبع الخطيئة، ويؤثر الموت على جميع الناس، والجميع يخطئون لأنهم توارثوا الخطيئة من آدم. ولأن «إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله» (رومية 23:3) فنحن نحتاج لضحية كاملة بدلاً عنا لغسل خطايانا، وهو أمر نعجز عن فعله بأنفسنا.[1]

ولهذا فهم يؤمنون أن السيد المسيح قد جاء ليموت على الصليب ويخلص البشرية من خطيئة آدم عليه السلام بالإضافة إلى إيمانهم واعتقادهم أن السيد المسيح هو ابن الله كما يزعم الكاثوليك أو أنه الرب نفسه كما يزعم الأرسوذكسي تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً.

وأما عن مقتل قابيل فيقولون إن «قايين» بعد قتله لأخيه هابيل انفصل عن آدم ولم تعد له مخافة للرب ولا حفظ وصاياه وشرائعه وطقوس عبادته «فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرق عدن» (سفر التكوين الإصحاح الرابع 16).

وأن قايين اتحد بنسل الحية رمز إبليس، وخروج قايين من لدن الرب تعني خروج النفس من حصن ربها مصدر سلامها.

وأما أرض «نود» فهي تعني التيه أو الاضطراب الناتج عن الانفصال الذي حدث والخروج عن طاعة الله، وقالوا إن هذا حدث أيضاً لليهود الذين اتخذوا قايين رمزاً لهم حين صلبوا المسيح حسب زعم المسيحيين، فكان عقابهم التيه والتشتت.

1- المصدر السابق www.gotquestions.org/arabixc

ادعاؤهم مقتل قايين خطأً

وقالوا إن قايين تزوج بأخته وسمح الله أن يخرج منهما نسل فولدت له «حنوك»، وزادت ذرية قايين «قابيل» فبنى مدينة باسم ابنه، ثم و لد «لحنوك» ابناً سماه محويائيل ثم ولد محويائيل ولداً سماه متوشائيل ثم ولد لمتوشائيل ولداً سماه «لامك».

وقالوا إن تلك الأسماء مرتبطة بصنعة صاحبها ولهذا كان المولود يعرف باسمه حين يكبر ويتخذ صنعة له.

وكان «لامك» يشعر بقوته فاتخذ لنفسه زوجتين وقال لامرأتيه «عادة» و«صلة»: «اسمعا قولي امرأتي لامك، واصغيا لكلامي، فإني قتلت رجلاً لجرحى وفتى لشدخي، إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين». (تكوين 4: 23).

وهم يفسرون هذا النص بأن «لامك» قد كبر سنه وضعف بصره وكان حفيده يقوده، وبينما هو يصطاد ضرب سهمه خطأ بعد أن أشار له حفيده على صيد فأصاب السهم جده «قايين» الذي كان حيًّا في وقتها، فقتل قايين خطئاً من سهم «لامك» وصرخ الحفيد معلناً مقتل «قايين»، فضرب «لامك» الفتى فقتله، وهكذا قتل «لامك» الجد «قايين» والحفيد أيضاً، وحين أدرك «لامك» أنه سينتقم منه قال ما قاله لامرأتيه في النص السابق في سفر التكوين.

ولكلام «لامك» ليس إلا إعلاناً أنه بريء من دم جده «قايين»، وأن الله سينتقم لقاتله 77 مرة، وهذا نوع من الكبرياء والغطرسة التي يعرف بها «لامك».

ولكن النص السابق لا يشير صراحة إلى أن «لامك» قد قتل جده «قايين» وإنما قتل رجلاً حيث قال: قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي» وتعرف هذه القطعة لديهم باسم «أغنية السيف للامك» وهي تنم عن الشعور بالافتخار والاعتداد بالذات والثقة بالنفس وأن «لامك» قد قتل رجلاً حين جرحه أي بمجرد لطمه أو جرح كرامته بكلمة، فكلمة شدخي تعني كسر الشيء وإلحاق الأذى به.

6 قابيل والمسيح الدجال

- قابيل وإسرائيل والمسيح الدجال.
- نحن أحفاد قابيل وهابيل.
- أيـن عاش بنـو إسرائيل فـي مصر أم في اليمن؟
- قابيل يعيش في كل واحد منّا.

قابيل وإسرائيل والمسيح الدجال

لعدم ذكر اسم ابني آدم عليه السلام في آيات سورة المائدة التي تحدثت عن قصتهما ذهب البعض إلى الاجتهاد في الأمر حتى قال بعضهم إن إسرائيل هو قابيل وهو أيضاً المسيح الدجال وأن بني إسرائيل هم أبناء قابيل وليسوا أبناء يعقوب النبي ابن اسحاق ابن إبراهيم أبي الأنبياء عليهم السلام، وقالوا إن قابيل قد طلب من الله أن ينظره كما فعل إبليس من قبل فأنظره الله إلى قرب الساعة أي أنه المسيح الدجال الذي يتبعه بنو إسرائيل الذين هم في الأصل أبناؤه وأحفاده. (1)

وللرد على هذا القول يحتاج إلى تفصيل كبير لأن من أخذ بهذا الرأي استند لبعض آيات القرآن ونصوص العهد القديم، بعضها وليس كلها إضافة إلى أن الأحاديث النبوية فصلت الأمر ووضعت النقاط فوق ا لحروف وأوضحت المسألة ولهذا سوف نوجز الرد في النقاط التالية:

إن القول بأن قابيل بن آدم هو المسيح الدجال يعني أن أبويه جاء نعتهما في الحديث النبوي أن أمه فرضاخية طويلة اليدين ولا يولد لهما ولد إلا بعد ثلاثين عاماً ثم يولد لهما غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة تنام عيناه ولا ينام قلبه، وقد وجد الصحابة تلك الصفات في شخص ابن صياد في عهد النبي ﷺ بالمدينة المنورة وكان من يهود المدينة.

ومن أوصاف الدجال أنه عقيم لا يولد له ولد، وقد جاء ذكر قابيل في العهد القديم وعند المؤرخين أنه له ذرية يظن أنهم غرقوا من الطوفان زمن نوح عليه السلام.

فقد جاء الطوفان ليغرق من كذب بآيات الله ورسالة نوح عليه السلام من قومه،

1- ممن قالوا أن قابيل هو المسيح الدجال د. فاروق الدسوق الفقي في كتابه المسيح الدجال بين الجبت والطاغوت، الأستاذ/ هشام كمال عبدالحميد في كتابه أسرار سورة الكهف وأسامة مرعي في كتابه الجبت والطاغوت عبر التاريخ.

وقد أشار القرآن أن نوحًا عليه السلام كان معه أمم غير أبنائه قال تعالى: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: 48].

وجاء في صحيح مسلم أن ابن صياد المتهم بأنه الدجال قال: «ما لكم يا أصحاب محمد ألم يقل نبي الله: إنه يهودي وقد أسلمت وقال: لا يولد له وقد ولد لي!!».

ثم هل آدم وحواء لم يلد لهما إلا ولد واحد كما جاء في وصف أبوي الدجال في الحديث التالي الذي رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما:

روى الترمذي بسنده عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: قال: رسول الله ﷺ يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثين عاماً لا يولد لهما ولد ثم يولد لهما غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة تنام عيناه ولا ينام قلبه ثم نعت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه.

فقال: أبوه طوال ضرب اللحم كأن أنفه منقار وأمه فرضاخية طويلة اليدين.

فقال: أبو بكرة فسمعنا بمولود في اليهود بالمدينة فذهبت أنا والزبير بن العوام حتى دخلنا على أبويه فإذا نعت رسول الله ﷺ فيهما فقلنا هل لكما ولد فقالا مكثنا ثلاثين عاما لا يولد لنا ولد ثم ولد لنا غلام أعور أضر شيء وأقله منفعة تنام عيناه ولا ينام قلبه.

قال: فخرجنا من عندهما فإذا هو منجدل في الشمس في قطيفة له وله همهمة فتكشف عن رأسه فقال: ما قلتما؟

قلنا: وهل سمعت ما قلنا.

قال: نعم تنام عيناي ولا ينام قلبي.

قال أبو عيسى (الترمذي) هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد بن سلمة، وقال ابن حجر العسقلاني حديث حسن. (1)

1- قوله: (وأقله منفعة) أي أقل شيء منفعة (تنام عيناه ولا ينام قلبه) قال القاضي: أي لا تقطع أفكاره الفاسدة عنه عند النوم لكثرة وساوسه وتخيلاته وتواتر ما يلقي الشيطان إليه، كما لم يكن ينام قلب النبي ﷺ من أفكاره الصالحة بسبب ما تواتر عليه من الوحي والإلهام (فقال) أي النبي ﷺ (أبـوه-

ومن الأدلة التي قيلت إن الدجال هو قابيل يقولون إن ذلك التشابه بين قابيل وإبليس جعل منهما حليفين للقضاء على الأديان السماوية فإبليس يريد أن يثبت لله بأنه أفضل من البشر وقابيل يريد أن يثبت لله بأنه أفضل من أخيه هابيل الذي فضله الله على قابيل بسبب تقبل الله لقربان هابيل وعدم تقبل الله لقربان قابيل، فكلاهما يريدان تحدي الله بإثبات أنهما مظلومان لذلك اتحدا مع بعضهما البعض لإفساد البشرية، فهما سيكونان المسؤولين لهلاك المليارات من البشر في جهنم والدليل على ذلك في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [سورة فصلت: 29].

هذه الآية دليل قاطع على أن هناك اثنين مسؤولين عن هلاك الكفار في جهنم أحدهما من الإنس والآخر من الجن هذان الاثنان هما إبليس والمسيح الدجال وفي تفسير الطبري بأن الاثنين هما إبليس وولد آدم الذي قتل أخاه أي قابيل فربما يكون قابيل فعلاً هو المسيح الدجال، وما الإشارة التي يقوم بها الماسونية من ثني جميع الأصابع باستثناء السبابة والخنصر إلا رمز للتحالف بين المسيح الدجال وإبليس.

ولأن قابيل كان في عهد نوح عليه السلام فقد حذر نوح قومه من الدجال وإلا فما

طوال) بضم الطاء وتخفيف الواو مبالغة طويل، والمشدد أكثر مبالغة لكن الأول هو الرواية (ضرب اللحم) قال في النهاية هو الخفيف اللحم المستدق وفي صفة موسى عليه الصلاة والسلام أنه ضرب من الرجال (كأن) بتشديد النون (أنفه منقار) بكسر الميم أي في أنفه طول بحيث يشبه منقار طائر (وأمه امرأة فرضاخية) بكسر الفاء وتشديد التحتية أي ضخمة عظيمة، وذكره القاضي. وفي الفائق: هي صفة بالضخم وقيل بالطول والياء مزيدة فيه للمبالغة كأحمري. وفي القاموس: رجل فرضاخ ضخم عريض أو طويل وهي بهاء أو امرأة فرضاخة أو فرضاخية عظيمة الثديين. وفي النهاية فرضاخية ضخمة عظيمة الثديين (فإذا نعت رسول الله ﷺ فيهما) أي وصفه موجود فيهما (فإذا هو) أي الغلام (منجدل) بكسر الدال. قال الطيبي: أي ملقى على الجدالة وهي الأرض. ومنه الحديث: « أنا خاتم النبيين في أم الكتاب » وآدم لمنجدل في طينته (في قطيفة) أي دثار مخمل على ما في القاموس (وله همهمة) أي زمزمة. وقيل: أي كلام غير مفهوم منه شيء وهي في الأصل ترديد الصوت في الصدر انتهى. وفي النهاية: وأصل الهمهمة صوت البقر (فكشف) أي ابن صياد (عن رأسه) أي غطائه (فقال ما قلتما) فكأنه وقع كلام بينهما فيه أو في غيره. ورواه أيضاً أحمد في المسند، وأبو داود أيضاً.

الحكمة من تحذير نوح لقومه من الدجال إن لم يكن موجوداً في عهده وجميع الأنبياء حذروا قومهم من الدجال لأنه موجود في كل جيل وإنه سيخرج في كل جيل على هيئة مختلفة لذلك لم يصف الأنبياء هيئته إنما اكتفوا ببيان شره وفتنته التي ستجعل من ضعاف الإيمان عبيداً لشهواتهم وسبباً لتحريف الأديان، لكن في آخر الزمان سيظهر بهيئته الحقيقية والتي وصفها لنا نبينا محمد ﷺ.

جاء في التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: 29].

فالقائلون ربنا أرنا اللذين أضلانا: هم عامة المشركين، كما يدل عليه قوله: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾.

ومعنى أرنا عيِّن لنا، وهو كناية عن إرادة انتقامهم منهم ولذلك جزم ﴿نَجْعَلْهُمَا﴾ في جواب الطلب على تقدير: إن ترناهما نجعلهما تحت أقدامنا.

والجعل تحت الأقدام: الوطء بالأقدام والرفس، أي نجعل أجسادهم تحت أقدام آحاد جماعتنا، فإن الدهماء أكثر من القادة فلا يعوزهم الانتقام منهم. وكان الوطء بالأرجل من كيفيات الانتقام والامتهان.

قال ابن كثير في تفسيره.. قال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن مالك بن الحصين، الفزاري، عن أبيه، عن علي، رضي الله عنه، في قوله: ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾

قال: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه، وهكذا روى حبة العرني عن علي، مثل ذلك.

وقال السدي، عن علي: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس -لعنه الله- هو الداعي إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما ثبت في الحديث: «ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل». (متفق عليه).

وقال الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ من خلقك من جنهم

وإنسهم. وقيل: إن الذي هو من الجن إبليس، والذي هو من الإنس ابن آدم الذي قتل أخاه.

قال القرطبي في تفسيره للآية السابقة: إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما، ويشهد لهذا القول الحديث المرفوع: ما من مسلم يقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذنبه لأنه أول من سن القتل. (خرجه الترمذي)، وقيل: هو بمعنى الجنس، وبني على التثنية لاختلاف الجنسين.

وهذه التفاسير للآية أن اللذين أضلانا هما إبليس وابن آدم الذي قتل أخاه قابيل لا تعني أن المسيح الدجال هو ابن آدم الأول قابيل.

أما من قال بأن قابيل هو إسرائيل وابن بني إسرائيل هم أبناء قابيل فقد استند إلى الآيات التالية من سورة الإسراء حين تحدثت عن موسى وبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء: 2 – 3].

قالوا: إن بني إسرائيل هم ذرية من حملنا مع نوح، فهم ليسوا من ذرية نوح عليه السلام، وقال تعالى: ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: 48].

واستندوا أيضاً لقوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾[المائدة: 32] وذلك بعد ذكر قصة ابني آدم عليه السلام؟ وقالوا إن ابني آدم هما من ذرية بني إسرائيل.

وقد رد أهل التفاسير على من قال إن ابني آدم المذكورين في آيات سورة المائدة من بني إسرائيل للحديث النبوي الصحيح الذي ذكر أن كل قتيل يُقتل على الأرض يتحمل ابن آدم الأول كفل من دمه إلى يوم القيامة وإن ذكر بني إسرائيل بعد ذكر القصة إشارة

إلى أن بني إسرائيل هم أكثر الأمم قتلاً لأنبياء الله وأبناءهم لسنة قابيل ونهجه في الحياة من عصيان أوامر الله وعدم اتباع الرسل والأنبياء.

وقد قال تعالى عن يعقوب عليه السلام الذي هو إسرائيل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27].

وقد قال عنه أيضاً: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: 93] وقد قال الذين ذكروا أن إسرائيل هو قابيل وليس يعقوب أن إسرائيل لو كان نبيًّا ما حرم ما أحل الله له، والرد عليهم أن هذا التحريم من نبي الله يعقوب كان قبل أن تنزل التوراة أصلاً وهو تحريم له سبب خاص به.

أي أن الطعام كان كله حلالاً لبني إسرائيل أي حلالا، ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾. وهو يعقوب عليه السلام، ففي الترمذي عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي ﷺ:

أخبرنا، ما حرم إسرائيل على نفسه؟

قال: (كان يسكن البدو فاشتكى عرق النَّسا فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرمها).

قالوا: صدقت. وذكر الحديث.

ويقال: إنه نذر إن برأ منه ليتركن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: أقبل يعقوب عليه السلام من حران يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو، وكان رجلا بطشا قويا، فلقيه ملك فظن يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه، فغمز الملك فخذ يعقوب عليه السلام، ثم صعد الملك إلى السماء ويعقوب ينظر إليه فهاج عليه عرق النَّسا، ولقي من ذلك بلاء شديدا،

فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله زقاء أي صياح، فحلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعز ألا يأكل عرقا، ولا يأكل طعاما فيه عرق فحرمها على نفسه؛ فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم.

وكان سبب غمز الملك ليعقوب أنه كان نذر إن وهب الله له اثني عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم. فكان ذلك للمخرج من نذره؛ عن الضحاك.

واختلف هل كان التحريم من يعقوب باجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟

والصحيح الأول لأن الله تعالى أضاف التحريم إليه بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ﴾؛ وأن النبي إذا أداه اجتهاده إلى شيء كان دينا يلزمنا اتباعه لتقرير الله سبحانه إياه على ذلك.

وكما يوحى إليه ويلزم اتباعه، كذلك يؤذن له ويجتهد، ويتعين موجب اجتهاده إذا قدر عليه، ولولا تقدم الإذن له في تحريم ذلك ما تسور على التحليل والتحريم.

وقد حرم نبينا ﷺ العسل على الرواية الصحيحة، أو أَمته مارية فلم يقر الله تحريمه ونزل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: 1].

قال الطبري: فيمكن أن يقال: مطلق قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ يقتضي ألا يختص بمارية؛ وقد رأى الشافعي أن وجوب الكفارة في ذلك غير معقول المعنى، فجعلها مخصوصا بموضع النص، وأبو حنيفة رأى ذلك أصلا في تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ قال ابن عباس: لما أصاب يعقوب عليه السلام عرق النَّسا وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرمها على نفسه. فقالت اليهود: إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل؛ لأن يعقوب حرمها وأنزل الله تحريمها في التوراة؛ فأنزل الله هذه الآية. قال الضحاك: فكذبهم الله ورد عليهم فقال: يا محمد قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين فلم يأتوا.(1)

1- انظر تفسير الطبري وغيره.

نحن أحفاد قابيل وهابيل

إذا كان نحن أحفاد وذرية آدم عليه السلام فنحن بالتالي أحفاد ابنيه قابيل وشيث الذي جاء عوضاً عن هابيل الذي لم يكن له عقب، وفي مقال أعجبني أنقله لكم عن الكاتب الصحفي/ أنيس منصور تحت عنوان (نحن أحفاد قابيل) يقول فيه:

«شيء غريب في كل مكتبة ترددت عليها وجدت أكثر الكتب عن الجريمة: كتب بوليسية.. أحدث كتب الجرائم.. أكثر الكتب انتشارا عن الجريمة.. جرائم كلاسيكية.. جرائم إلكترونية. أما كتب الفلسفة فأقل من كتب الأدب وكتب الأدب أقل من كتب التاريخ. وكتب التاريخ أقل من كتب الفلك وكتب الفلك أقل من كتب الرياضة والألعاب.

كأن الانسان لم يشبع من أشكال الدمار والنار.. في الحروب والانتفاضات الشعبية. والإضرابات. كل هذه الصور العنيفة الدامية لم تقنع الإنسان بأن يكتفي بهذا القدر ويقلع عن التعطش للدماء والنار والعنف والرعب!

فلا تزال أفلام الرعب تلقى هوى عند المشاهدين. فالناس يقفون طوابير قلقة ويتزاحمون على الأفلام المخيفة. إنهم بمنتهى الهدوء يذهبون لتهزهم الشاشة وتمزق أعصابهم. ويخرجون سعداء بهذا الزلزال النفسي. وما داموا كذلك فإن أحداث العنف والقتل قد اعتادوا عليها ويطلبون المزيد.. ولم نعد ندرك الفارق بين المعارك في الأفلام والمعارك الحقيقية.. وعلى الشاشة نجد المقاومة الشعبية والمقاومة الفنية.. أما المقاومة والعنف في الأفلام فهي أدق وأكثر إثارة لأنها عمل بالعقل ويسرد للوقائع بالمنطق. ولذلك كانت الدماء الفنية أجمل وأعمق أثراً.

فنحن أحفاد قابيل الذي قتل أخاه هابيل.. فالدماء والانتقام والحقد يجري في عروقنا. ومن أجمل المشاهد في فيلم قديم اسمه (الكتاب المقدس) بطولة صوفيا لورين.. أن نجد

دماء هابيل تسقط في ماء النهر الذي يصب في كل أنهار الدنيا التي شربنا منها.. شربنا دم القتيل.. فدم القاتل والقتيل يلتقيان في عروقنا. ولذلك نحن حريصون على إحياء هذه الجريمة أو مشاهدتها في الواقع والفن..

ثم إن الحياة اليومية مملة. وتحتاج إلى ما يفتح الشهية على الحياة. ولم نجد حتى الآن إلا الشطة والملح والجريمة في الكتب أو على الشاشة! وفي إحدى قصص الأديب الإنجليزي (كونان دويل) الذي اخترع شخصية شيرلوك هولمز البوليسية أن أما اعتادت أن تروى لطفلها قبل النوم بطولات والده الذي مات في الحرب. وكان الطفل لا ينام بسهولة. وكان يدهشها بأسئلته الغريبة. ويسألها: كيف كان أبي يحارب العدو دون أن يقتل أحدًا بالمدفع. وإذا نفدت الذخيرة لماذا لا يهجم عليه ويقتله بيديه.

وكانت الأم تفزع وتحاول أن تهرب من الإجابة فكان الطفل ينفض الغطاء ويستوي جالسا متسائلا: هل تحاولين إقناعي بأن أبي لم يقتل أحدا. لابد أنه قتل وهذا ما أريد أن أسمعه بالتفصيل لكي أؤمن بعظمة والدي.. وتستسلم الأم. وتتحدث عن جرائم والده البطل في الحرب. ولا يكاد الطفل يسمع ذلك حتى تبدو الراحة على وجهه وينام! إنهم وإننا أولاد العنف والجريمة أولاد الحروب.

وقد قال لنا المؤرخ العظيم ول ديورانت إن الحروب قد استغرقت من تاريخ الإنسانية 1127 سنة.. أما سنوات السلام فلم تزد على مائة وعشرين سنة!

فكيف لا نفرح بالجريمة وكيف لا ننام على موسيقى المدافع والقنابل وتستمتع عيوننا بدماء الآخرين!» انتهى

وبالفعل نرى الجانب الشرير في حياتنا هو الغالب الأعم والمسيطر على حياتنا، ولا سيما خلال تلك السنوات الأخيرة في عالمنا العربي والإسلامي، أضف إلى ذلك ما يعرف باسم ثورات الربيع العربي، التي أيقظت روح «قابيل» الشرير الأول والحاسد الأول والقاتل الأول فنرى روح العدوانية قد سادت وتوارت روح المحبة بين الناس الذين انقسموا إلى قابيل وهابيل.

أين عاش بنو إسرائيل؟
في مصر أم في اليمن؟

1- قال الباحث الدكتور فاضل الربيعي إن هناك فرقا في المفهوم بين بني إسرائيل واليهود، إذ أن بني إسرائيل تعتبر قبيلة عربية قديمة زائلة شأنها شأن غيرها من القبائل القديمة.

وأضاف خلال أمسية نظمها فرع رابطة الكتاب الأردنيين في الزرقاء أن اليهودية دين، واللغة العبرية ليست لغة محكية أو لغة تفاهم يومي، بل تعتبر لغة الكهنة، فهي لهجة من بين لهجات عرب اليمن، وكانت تسمى بالعبرية الصنعانية، مؤكدا أن ذلك ينسف فكرة الادعاء اليهودي بالحق التاريخي في فلسطين.

وأوضح الربيعي أن التوراة كنص ديني، لا تذكر اسم القدس أو فلسطين، بينما تم تكريس ذلك بعد أن أنتجته المخيلة الغربية الاستشراقية التي طوعت النص التوراتي لمطابقته مع الجغرافيا الفلسطينية، مبينا أن التوراة لم تذكر اسم القدس، إذ أن اسم القدس ظهر إثر الفتوحات الإسلامية، إضافة إلى أن ما ورد في التوراة هو التحدث عن (جبل قدس) دون الألف واللام، كما أن التوراة لا تقول إن القدس هي أورشليم، إذ تتحدث عن مكانين منفصلين هما: (جبل قدس) و(مدينة أورشليم).

ولفت الربيعي إلى أن القراءة الاستشراقية سعت إلى اختلاق جغرافيا لا وجود لها، إذ إن (جبل قدس) يقع في منطقة تعز جنوب غرب عدن، فيما الوصف الجغرافي للوصول إلى جبل قدس يحتم المرور بجبال ووديان موجودة في اليمن، مشيرا إلى خطأ الدمج بين العبرانية من جهة وبين بني إسرائيل من جهة أخرى حيث إن (العابر) هو شخصية دينية

وليس تاريخية، وهذا أمر مألوف، فبني إسرائيل لا علاقة لهم بالعبرانيين، وإن فكرة عبور الماء هي جزء من عقيدة دينية بالغة القدم تنظر إلى الماء باعتباره مقدسا.

وحول المصادر التي اعتمد عليها الدكتور الربيعي في أبحاثه، أشار إلى النقوش واللقى والآثار والمخطوطات، وتاريخ الهمداني الذي يكتب وصفا دقيقا لجزيرة العرب ويصف اليمن بكامل تفاصيلها التي تتطابق مع الوصف التوراتي، كما اعتمد على الشعر الجاهلي الذي قدم عرضا لمعظم ما ورد في التوراة، إضافة إلى إعادة ترجمة النص العبري وعدم الاعتماد على النص العربي الموجود.

وأكد أن مصطلح القبائل السامية مصطلح ملفق من قبل المستشرقين وغير علمي، حيث تقصد علماء الآثار والمستشرقون الغربيون عدم تسمية المواقع بأسمائها الحقيقية بل بلغة دينية وابتدعوا عرق الكنعانيين لتمييزهم عن العرب، مبينا أننا قبائل عربية معينية وصلت إلى بلاد الشام ولا يوجد شيء اسمه آراميون، فهو يؤكد نفيه للمصطلح ولا ينفي وجود القبيلة أو الجماعات.

وقد ذكر د. كمال الصليبي في كتابه (التوراة خرجت من الجزيرة العربية) أن بني إسرائيل عاشت جنوب الجزيرة العربية قرب اليمن (جيزان).

2- ويقدم المستشار هشام سرايا رؤى أخرى عن بني إسرائيل في كتابه (حياة بني إسرائيل في مصر.. بين حقائق الدين ومصادر التاريخ) حيث تتبع قصة بني إسرائيل في مصر منذ أن دخلوها معززين مكرمين مع نبى الله يوسف عليه السلام، وعاشوا في أرض جاسان «ما بين محافظة الشرقية وقناة السويس»، حتى خرجوا منها مع سيدنا موسى عليه السلام في عهد رمسيس الثانى.

فقد ذكر أنه لا توجد علاقة بين بني إسرائيل القدماء والحاليين، ويكشف عددا من الحقائق الهامة أبرزها أن هناك مجموعة من ملوك مصر القديمة تعود أصولهم إلى بني إسرائيل من ناحية الأم، مثل أمنحتب الثالث، وإخناتون، وسمنخ كارع، وتوت عنخ آمون، والملك آى، وكلهم من أسرة يويا صاحبة الأصول التي تعود إلى بنى إسرائيل،

ونفرتيتى التي تعد من أصول بني إسرائيل أبا عن جد، والمعروف عن نفرتيتى كما يقول الكتاب أنها زوجة إخناتون وابنة خاله، وانجذبت معه منذ طفولتها إلى عقيدة التوحيد، واشتركا معا في إعلانها ديانة رسمية لمصر، واشتهرت بجمالها الفائق وملامحها المتناسقة، وأنجبت لإخناتون ست بنات، ولعبت دوراً كبيراً مع زوجها في نشر عقيدة التوحيد.

ويقسم الكتاب حياة بني إسرائيل في مصر إلى ثلاث مراحل، الأولى من مجيء سيدنا يوسف إلى مرحلة مواجهة الملكة حتشبسوت لبنى إسرائيل، واستمرت هذه المرحلة نحو 110 أعوام، وأعادت حملة حتشبسوت المعابد الشمالية المصرية إلى حظيرة الوثنية، وممارسة شعائرها القديمة، ونبهت سلطة الحكم إلى خطر بني إسرائيل وإلى صلتهم القديمة بالغزاة الهكسوس.

أما المرحلة الثانية فتبدأ من بعد مواجهة حتشبسوت، وقام فيها بنو إسرائيل باغتيال أشقاء تحتمس الرابع وعددهم 7 ثم اغتياله هو، من أجل الوصول بابنه إلى الحكم، ويعطى الكتاب الخلفية التي تحرك من خلالها بنو إسرائيل للوصول إلى هدفهم، وذلك بقوله إن تحتمس الرابع أحب وهو في سن المراهقة فتاة جميلة إسرائيلية هي «موت إم أويا» التي أنجبت «أمنحتب الثالث»، ويوضح الكتاب أن الملك تحتمس الرابع وطد أركان دولته في الداخل والخارج ودعم علاقاته بتحالفات مع حكام الدول الأجنبية القوية، ووسع من دائرة نفوذه وأكثر من أتباعه ومعاونيه، وصار له من عدة زوجات اثنا عشر ابنا وبنتا، وانتهج خُطا ملوك أسرته العظام.

ولكل هذه الأسباب يؤكد المستشار هشام سرايا في مؤلفه أنه حينما لاحظ بنو إسرائيل أن عوامل الزمن تسير ضد رغبتهم بقوة تحتمس الرابع، ولم تعد مأمونة العواقب، وأن مرور الوقت أكثر من هذا سوف يجهض مؤامراتهم ويذهب بجهودهم السابقة سدى، جاء قرارهم بالتخلص منه وهو في الثلاثين من عمره وبعد عشر سنوات من الحكم، وجاء قرار قتله حتى يتحتم جلوس ولى العهد «أمنحتب الثالث» على العرش وكان طفلا.

وأصبح بذلك تحت وصاية الأم التي تنتمى إلى بنى إسرائيل، وبعد أن كبر ولي العهد واشتد عوده تزوج من الإسرائيلية الملكة تى التي تعد أعظم نساء التاريخ المصرى ذكاء وقوة وعزيمة، وكان نفوذها قويًا وكبيراً داخل مصر وخارجها.

أما المرحلة الثالثة فهي التي شهدت الكثير من الاغتيالات التي أقدم عليها بنو إسرائيل، وكشفها حور محب وعرفت بمرحلة التعذيب والاضطهاد والتى استمرت حتى عهد الخروج مع سيدنا موسى عليه السلام في عهد رمسيس الثانى، وكان عمر النبى موسى وقتئذ حوالى ثمانين عاما، ويذكر الكتاب أن موسى ولد في مصر لعائلة تنتمى إلى قبيلة إسرائيلية تعيش في شرق البلاد منذ أن استقر الأجداد في زمن يوسف ويعقوب عليهما السلام.

وفى زمن ميلاده صدرت الأوامر من فرعون هذا العصر باستباحة دماء ذكور أطفال بنى إسرائيل، وعندما خافت أم موسى استجابت لوحى السماء وألقته في النهر، فحمله إلى بيت هذا الفرعون الظالم، وانتشل من النهر ورأته امرأة فرعون وتعلقت به، وعاش في كنف البلاط الملكى وتربى تربية الأمراء وتعلم في مدارس المعابد والتحق بأعرق جامعة على وجه الأرض، فأتاه الله علما واسعا ثم حكما في أقوى وأعظم دولة في العالم، وفرضت الظروف على موسى، أو كان ذلك قدره، أن يخرج هاربا من مصر إلى أرض مدين.

وهناك تزوج وعاش سنوات من عمره يعمل في الرعى، وخرج بأهله متنقلا بين مراعى الصحراء، ومنذ أن حل بهذا الوادى حتى لحظة أن رأى النار لم يكن يتوقع هذا التغيير العظيم القادم في حياته. ويؤكد الكتاب كذب الأساس الذي قام عليه المسلسل الإيرانى «يوسف الصديق» وهو أن سيدنا يوسف عليه السلام جاء إلى مصر في عهد أمنحتب الثالث، وترك تأثيره على ابنه الذي حول اسمه إلى إخناتون واتبع عقيدة التوحيد بفضل نبى الله يوسف عليه السلام، حيث يؤكد المؤلف أن يوسف قدم إلى مصر في عهد الهكسوس أى قبل إخناتون بمئات السنين.

ويفسر المستشار هشام في كتابه، عدم ورود أى إشارة في الآثار المصرية إلى وجود سيدنا يوسف، وعدم العثور على مقبرته بالرغم من أنه عاش في عصر الهكسوس بالذات الذي يعتبر أكثر فترات التاريخ المصرى غموضا، ورغم الجهود المضنية للبعثات الأثرية التي عملت في مصر منذ القرن التاسع عشر، لكنها لم تصل إلى آثار بني إسرائيل في أرض جاسان، والسبب الرئيسى يعود إلى أن المصريين بعد أن تم لهم طرد الهكسوس دمروا كل آثارهم وما يشير إلى وجودهم في أرض مصر.[1]

وهكذا عرضنا لآراء كتاب معاصرين عن بني إسرائيل سواء أماكن تواجدهم كما قال البعض أنهم لم يعيشوا في مصر وإنما في جنوب الجزيرة العربية وهذا رأي البعض وهو رأي يحترم واجتهاد لا بأس به مع اختلافنا معه، وعرضنا كذلك للرأي الآخر الذي أفاد أن بني إسرائيل عاشوا في مصر منذ عهد يوسف عليه السلام واندمجوا في الأسرة الحاكمة بالتزاوج معهم وهم أمر محتمل، كما فعلوا حين تم أسرهم في بابل وكذلك في العصر الفارسي أيضاً، والله أعلم.

1- كتاب حياة بني إسرائيل في مصر – هشام سرايا.

قابيل يعيش في كل واحد منا

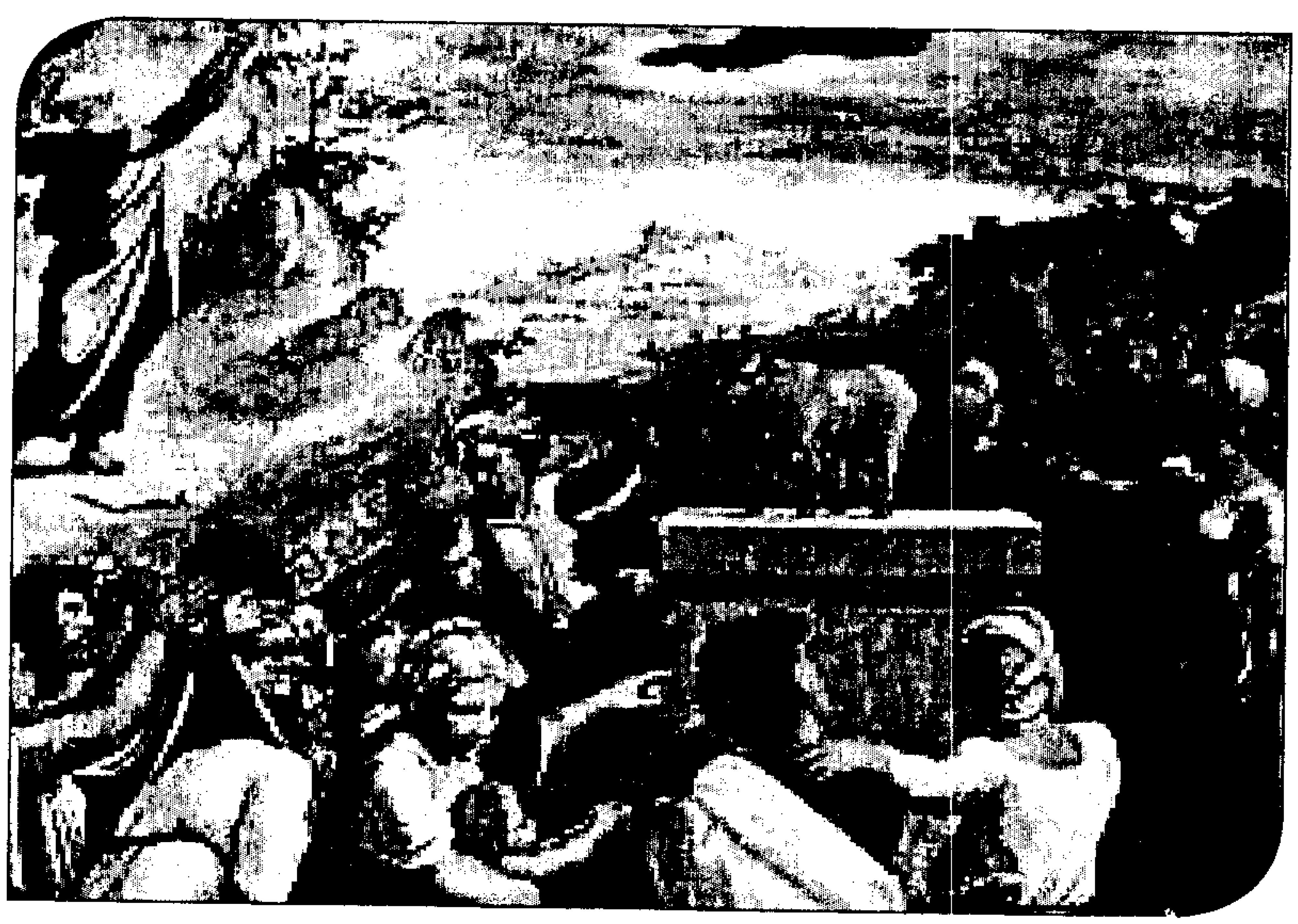
أصبح قابيل رمزاً للشر الكامن داخل كل إنسان وهابيل رمزاً للخير، والصراع بينهما مستمر إلى يوم القيامة، فكل إنسان منا يحيا بداخله الخير والشر، فمنذ الصراع الأول بين رمز الخير ورمز الشر على الأرض ابني آدم عليه السلام ومنذ أن قتل قابيل أخاه هابيل حقداً وحسداً منه، ولم تنطفأ شرارة الحسد في النفس البشرية، فقد ظل قابيل مطروداً من رحمة الله تطارده لعنة الدم الذي سفكه على الأرض دون وجه حق، عاش قابيل خائفاً يترقب ومن خلفه ذريته تتوارث عنه هذه اللعنة وذرية شيث ابن آدم عليه السلام الذي خلف أخاه هابيل حاملاً لواء الخير تتوارث البعد عن قابيل وذريته حتى جاء الوقت واستطاع إبليس اقناع أحفاد قابيل أن يندمجوا مع أبناء عمومتهم ذرية قابيل الذين احترفوا الطرب وصناعة المعازف والفساد، وعبادة الأوثان والنار.

وبعد قرون من التوحيد عاشها أبناء شيث عليه السلام عبد الإنسان الأوثان في عصر نوح عليه السلام، فأرسل الله إليهم رسوله نوح بن لامك كي يدعو إلى التوحيد إلا أنهم أصروا على الكفر وانتهى الأمر بعقابه بالطوفان ولكن ذرية قبيل ظلت موجودة على الأرض حيث ركب السفينة مع نوح عليه السلام وعاد الشر مرة أخرى في حياة الإنسان وعبدت الأصنام وأرسلت الرسل «صالح وهود» وغيرهما حتى عصر أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وظل بنو قابيل يفسدون في الأرض بعد أن اختلطت الأنساب بالتزاوج والعيش على الأرض مع أبناء آدم الآخرين ما زالوا مندمجين.

وكان أكثر الأمم اتباعاً لقابيل وذريته هم بنو إسرائيل الذي حملوا راية الفساد والعصيان لله التي رفعها قابيل من قبل على الأرض وقد تحالفوا مع الشيطان الأكبر وسيظل الفساد موجوداً طالما هم على وجه الأرض يعيشون، فغالبية البشر في الشرق والغرب أصبحوا يمثلون قابيل رمز الشر.



الفرعون المصري إخناتون.



بنو إسرائيل بعد أن نجاهم الله من فرعون وجنوده، عبدوا العجل بمشورة السامري دجال بني إسرائيل.



صورة تخيلية لبني إسرائيل القدامى.

كلمة أخيرة

من هو المسيح الدجال؟

في الحقيقة أنه سؤال الإجابة عليه ليست بالأمر الهين ولكننا نلقي بعض الضوء على تلك المسألة..

فالمسيح الدجال كما نص الحديث النبوي أنه موجود قبل عصر نوح عليه السلام وأنه ما من نبي إلا وحذر أمته من المسيح الدجال، فقد جاء في الحديث الذي رواه أحمد في المسند بسنده أن رسول الله ﷺ قال: إني خاتم ألف نبي وأكثر، ما بُعث نبي يُتبع إلا قد حذر أمته الدجال، وأني قد بين لي من أمره ما لم يبين لأحد، وأنه لأعور، وأن ربكم ليس بأعور، وعينه اليمنى عوراء جاحظة ولا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري، معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجري فيها الماء وصورة النار سوداء تدخن.

وفي الحديث المتفق عليه قال: «وإني أنذركم به كما أنذر به نوح قومه..». [1]

والأنبياء لا يحذرون من أوهام بل يحذرون من خطر حقيقي موجود فالمسيح الدجال كان موجودا في كل العصور وعاصر كل الأنبياء، وكان يحبس في فترات معينة كما حدث في بعثة النبي ﷺ حيث كان في جزيرة بالبحر حين قابله تميم الداري في الحديث الشهير الذي رواه مسلم ويعرف بحديث الجساسة، وقد خرج الدجال من تلك الجزيرة في أواخر عهد النبي ﷺ ومشى في الأسواق.

1- رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وقد حذر شيث ابن آدم ومن جاء بعده من الأنبياء من ذرية آدم أقوامهم من الدجال، في البداية كانوا يحذرونهم من قابيل وأولاده ثم من المسيح الدجال الذي هو أحد أحفاد قابيل وهو المدعو «توبال قايين» أو «طوبال قايين» أو «طوبى لقايين»، وكلمة طوبى أو «توبال» تعني المجد أو العظمة، وقايين هو قابيل بالعربية أي أن حفيد «قابيل» المدعو «توبال قايين» أو «طوبال» هو المسيح الدجال وتلك تستخدم كتحية وتعارف أو كلمة السر عند الماسون والله تعالى أعلم، فالأمر يحتاج إلى تفصيل ليس هذا مجاله، فـ «قابيل» كما ذكر لا تنطبق عليه ما جاء في الأحاديث النبوية عن المسيح الدجال.

فمن هو «توبال» هذا؟ وما نسبه إلى قابيل (قايين)؟

إنه يدعى «توبال قايين» أحد أحفاد قابيل (قايين)، وأبوه «لامك» بن «متوشائيل» بن «محوئيل» بن «عيارد» بن «حنوك» بن «قايين» (قابيل) بن آدم عليه السلام.

وجاء ذكره في سفر التكوين من العهد القديم: «واتخذ «لامك» لنفسه امرأتين: اسم الواحدة «عادة» واسم الأخرى «صلة»، فولدت «توبال قايين» الضارب كل آلة من نحاس وحديد، وأخت «تبال قايين» نعمة». (سفر التكوين 4: 9-23).

والماسون يستخدمون كلمة «توبال قايين» ومعناها «المجد لقايين» و«توبال قايين» هو الوريث الحقيقي لجده «قايين» وقد أضاف اسم جده لاسمه، ومن هنا ظن البعض أنه هو قايين «قابيل»، وكان «توبال قايين» هذا من اخترع آلات اللهو والمعازف وقد اتهم أباه «لامك» بأنه هو الذي قتل جده قايين خطأ - كما ذكرنا - حين رماه بسهم وهو يصطاد ولهذا قال: «لامك» لامرأتيه «عادة» و«صلة» اسمعا قولي يا امرأتي لامك وأصغيا لكلامي فإني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي إنه ينتقم لقايين سبعة أضعاف وأما للامك فسبعة وسبعين..» (التكوين 4: 24).

وكان أبوه «لامك» أول من اتخذ لنفسه زوجتين وكان هذا مخالف لفعل آبائه وقتها، وكان أبناؤه أصحاب المعازف والغناء والرقص وهم في عصرنا الحالي منتشرون في كل مكان ولهم السيادة على العالم.

وكل ما يقال عن تحديد شخص الدجال ليس إلا مجرد اجتهاد وتحليل لما ورد عنه من آثار وأحاديث ونصوص في كتب أهل الكتاب والعلم عند الله.

ونسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل منّا هذا العمل وسائر أعمالنا الأخرى الصالحة وأن تكون في ميزان حسناتنا يوم أن نلقاه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المؤلف

أهم المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح البخاري.

٣- صحيح مسلم.

٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٥- سنن الترمذي.

٦- فتح الباري في شرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني.

٧- شرح صحيح مسلم للإمام النووي.

٨- تفسير ابن كثير.

٩- تفسير القرطبي.

١٠- تفسير الطبري.

١١- تفسير الفخر الرازي.

١٢- البداية والنهاية لابن كثير.

١٣- تاريخ الطبري.

١٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية.

١٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبدالباقي.

١٦- طوفان نوح العظيم - منصور عبدالحكيم.

١٧- القبيلة 13 تحكم إسرائيل والعالم - منصور عبدالحكيم.

١٨- قاموس الكتاب المقدس.

١٩- المعجم الوجيز - مجمع اللغة العربية - القاهرة.
٢٠- القبيلة الثالثة عشرة - آرثر كستلر.
٢١- أسرار سورة الكهف - هشام كمال عبدالحميد.
٢٢- أسرار الجبت والطاغوت - أسامة مرعي.
٢٣- الكامل في التاريخ - لابن الأثير.

الكاتب في سطور

- منصور عبدالحكيم محمد عبدالجليل.
- من مواليد القاهرة 1955.
- حاصل على ليسانس في الحقوق جامعة عين شمس 1978م.
- يعمل بالمحاماة والكتابة في الصحف والمجلات العربية والإسلامية له العديد من الإصدارات والأبحاث في الصحف والمجلات العربية والإسلامية واللقاءات على الفضائيات العربية وترجمت بعض كتبه للغة الإنجليزية ولغات أخرى.
- وعدد الكتب التي صدرت له حتى عام 2014 (163) كتاباً متنوعاً أثْرَت المكتبة العربية والإسلامية.

من الكتب التي صدرت له:

- السيناريو القادم لأحداث آخر الزمان.
- نهاية العالم وأشراط الساعة.
- عشرة ينتظرها العالم.
- تنبؤات نوستراداموس ومخططات اليهود.
- يأجوج ومأجوج من البدء حتى الفناء.
- البداية فتن والنهاية ملاحم.
- أقدم تنظيم سري في العالم.
- العالم رقعة شطرنج.
- من يحكم العالم سرا ؟.
- أسرار الماسونية الكبري.

- أوراق ماسونية سرية للغاية.
- العراق أرض النبوءات والفتن.
- الإمبراطورية الأمريكية - البداية والنهاية.
- نيويورك وسلطان الخوف.
- بلاد الحجاز معقل الإيمان آخر الزمان.
- بلاد الشام أرض الأنبياء والنبوءات.
- الفراسة في معرفة الآخرين.
- ازدراء وإيذاء الأنبياء.
- المهدي في مواجهة الدجال.
- الحرب السابعة ونهاية اليهود.
- هرمجدون ونهاية أمريكا وزوال إسرائيل.
- السفيانى صدام آخر على وشك الظهور.
- إسرافيل وأهوال القيامة.
- مؤامرات وحروب صنعتها الماسونية.
- عزرائيل ملك الموت.
- حكومة الدجال الماسونية الخفية.
- الشيطان إبليس وصراعه مع الإنسان.
- صلاح الدين المنقذ المنتظر.
- هلاك الأمم من قوم نوح إلى عاد الثانية.
- جنكيز خان إمبراطور الشر.
- هولاكو مارد من الشرق.

- مالك خازن النار النار وأهوالها.
- عرش إبليس ومثلث برمودا.
- هل الشعراوي متطرف يا إبراهيم.
- نهاية العالم قريباً.
- نهاية دولة إسرائيل سنة ٢٠٢٢.
- الحرب العالمية الثالثة قادمة.
- المهدي المنتظر.
- نهاية ودمار إسرائيل وأمريكا.
- بيوت الرسول وبيوت الصحابة حول المسجد النبوي.
- رضوان خازن الجنة
- الحرب العالمية الأخيرة قادمة.
- دولة فرسان مالطا وغزو العراق.
- القرين العدو الحقيقى للإنسان.
- الثالوث الغامض..قارة أطلانتس ومثلث برمودا والأطباق الطائرة.
- عالم السحر والسحرة والمسحورين.
- أصحاب البروج في مواجهة أصحاب الكهوف.
- السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين المحترمين.
- تيمورلنك إمبراطور على صهوة جواد.
- مصطفى كمال أتاتورك ذئب الطورانية الأغبر.
- الحجاج بن يوسف الثقفي طاغية بني أمية.
- عمرو بن العاص داهية العرب.

- خالد بن الوليد قاهر الأكاسرة والقياصرة.
- نهاية العالم قريباً.
- النساء المبشرات بالجنة.
- جهنم في الديانات السماوية.
- حرب الفيروسات ونهاية العالم.
- سلالات وعائلات ومنظمات تحكم العالم.
- بروتوكولات حكماء صهيون والمخططات الماسونية.
- التمهيد الأخير لظهور الدجال.
- الدجال في مواجهة الوحي الإلهي.
- المسيح في مواجهة الدجال.
- هارون الرشيد الخليفة المفترى عليه.
- السلطان قطز وعين جالوت.
- بر الوالدين وعقوقهما وصلة الأرحام.
- أبناء في الجنة وآباء في النار.
- يوم الحشر وأهوال القيامة.
- عالم الملائكة الكرام.
- مشاهير وعظماء اغتالتهم الماسونية.
- هاروت وماروت بين الحقيقة والخيال.
- الماسونية والثورات الشعبية بين الحقيقة والافتراء.
- جنود الله من الباعوضة إلى الفيس بوك.
- الصحابة تسأل والله يجيب.

- الشرق الأوسط في نبوءات الكتب المقدسة.
- مثلث برمودا مقبرة الأطلنطي.
- حوار مع صديقى عن الماسونية..
- قصة أبينا آدم من الطين إلى الجنة.
- الدولار الأمريكي الشفرة المقدسة للنظام العالمي الجديد.
- لعبة المتنورين والنظام العالمي الجديد.
- آل روكفلر تجار الموت وأعوان الدجال.
- الدولة العثمانية وسلاطين بني عثمان.
- طوفان نوح العظيم.
- السلطان سليمان القانونى وحريم السلطان.
- الشام على أعتاب النهاية.
- عبد الله بن سبأ مؤسس الماسونية في الإسلام.

وكتب أخرى متنوعة تطلب جميعها من دار الكتاب العربي (دمشق - القاهرة) والمكتبات الكبرى.

الفهرس